الرأى العام والدعاية

الأستاذ الدكتور
أحمد سويلم العمرى



الرأى العام والدعاية

للاستاذ الدكتور
أحمد سويلم العمرى

مقدمة

« إذا كان لدى المرء فى هذه الدنيا شىء
يريد أن يقوله فالصعوبة ليست فى حثه
على قوله بل فى منعه من قوله مرارا
وتكرارا »

برنارد شو
(الفصل الرابع من مسرحية قيصر وكليوباترا)

ان العلوم السياسية تتخذ اليوم مكانا مرموقاً فى الدراسات الاجتماعية وفى بحث علاقات الأفراد والشعوب أو بعبارة أخرى بحث علاقات الجماعات السياسية فى الحدود القومية وخارجها ، والرأى العام والدعاية والأعلام من الأركان الهامة فى الدراسات السياسية ومما يشغل بال رجال السياسة والكتاب اليوم .

وتساعد هذه الدراسات بقيامها على أسس علمية صائبة فى لفت أنظار المسئولين إلى علاج مايقوم من ضعف فى النظم وهذا ناقوس الخطر الذى يرن لكى تبادر الدولة بتلافى الأضرار المحيقة بالجماعات وبالعمل على حسن سير علاقات الأفراد وكذلك الدول والشعوب بعضها ببعض ، وهكذا يتبين ماتحتاج إليه الجماعات كجماعات خاصة ، وكجماعات منظمة وكجماعات عامة تقوم على نظم تؤسسها وتسير فى هداها وأخيراً كجماعات سياسية .

والرأى العام له أثره فى الحياة السياسية ، يترتب على اتجاه الرأى العام تطور الحياة الاجتماعية للأفراد والجماعات وسير الحكومات فى تشريعاتها وتصرفاتها مع تنقيح ما يجب تنقيحه من دساتير وقوانين وبحث الوسائل الصادقة لعلاج اضطرابات عالم اليوم وتوفير الاستقرار والطمأنينة للمواطنين فى ظل حكم راسخ الدعائم .

والرأى العام وهو اتجاه ميول الناس ورغباتهم جملة يتكون من قطرات صغيرة لاتلبث باستمرار هطولها أن تكون نهراً جارياً يروى الفكر السياسى ، ويتجه الرأى العام وجهة معينة لحساب الجماعة ولتنبيه الدولة عند اللزوم إلى مصدر الخطر . وهذا مايجعل من الأهمية بمكان أن توجه الدولة الرأى العام توجيها سليما بدعاية وتوعية صادقة على أساس ألا يعافها الفرد تبعاً لضغطها ومبالغتها وعلى ألا تظهر سافرة وملغمة بالأكاذيب

والرويات المختلقة والتحفز والتحرش وبذلك تصبح غير صالحة حتى كمجرد ناحية اخبارية وتختفى منها التوعية .

والدعاية هى القوة أوالتيار الكهربى الذى يتجه نحو الرأى العام ليوجهه أفراداًوجماعات نحو فكرة معينة أوعمل وإجراء معين لصالح هيئة أوجماعة أومجموعة سياسية كبرى هى الدولة أومجموعة الدول ، وهى كذلك بمثابة الأثير الذى يحمل فى ميدان الحياة الاجتماعية مايحسن اتخاذه من تصرف يراه صاحب الفكرة وقد يكون هيئة تجارية أوشركة تدعو لمنتجات معينة ، وقد يكون جمعية من الجمعيات الدولية أوالقومية للحض على البر أو السلام أو الدين أو الثقافة أوالقانون أو الاقتصاد أو التعاون بين الناس فى سبيل الأمن الدولى ورفاهية البشرية ، وقد يكون مجموعة سياسية هى دولة أوعدة دول تعمل فى سبيل مثل معينة للدفاع عن عدم الانحياز مثلا أو الحياد الإيجابى أو التعايش السلمى ولمكافحة الاضطهاد الدينى والتعصب العنصرى أو هى الأسرة الدولية برمتها ممثلة فى ميثاق الأمم المتحدة ومنظماتها لإقرار الأمن الدولى وتسوية المنازعات الدولية بالحسنى دون امتشاق الحسام وللحض على المساواة بين البشرية واحترام حقوق الإنسان والقضاء على الفقر ونشر التعاون الثقافى والاقتصادى والاجتماعى بين الأفراد والشعوب .

ويعاون الرأى العام أجهزته فى الأعلام وهى الأدوات التى تحمل بحنكة مع دقة استكمالها وتوجيهها القوة الكهربية أى الدعاية أو العربة التى تنقل الفكرة من صاحبها وتوجهها إلى من يحتمل أن يتأثر بها ، وإذا كانت الدعاية فى الرأى العام كالأشعة التى تلقى الضوء على تطور حياة الأفراد والجماعات ، فالأعلام هوجهاز نقل هذه الأشعة أو بعبارة أخرى المرآة التى تعكسها ، والأعلام له أنواعه المتعددة قولا وإشارة وصوراً ، وأجهزته مع تطور العلوم وسرعة المواصلات عديدة كالصحف والمجلات والنشرات والكتب والقصص والمسرحيات وما يعرض على الستار الفضى والإذاعة ،والتليفزيون والأغنيات والخطب الحماسية والعرض الواقعى للأمور مع وسائل الإصلاح فى المحاضرات والدعوة الانتخابية .

وغرض دراستنا هذه عرض المبادئ الهامة لماهية الرأى العام وأنواعه ووسائل الاتصال به والتأثير فيه ثم لأنواع الدعاية ومايصلح منها ويتخذ قدوة يحتذى بها مع استبعاد الغث منها ، ثم لأنواعها وأجهزتها وكيفية استخدامها مع بيان مختصر فى تطور الرأى العام والدعاية ، كما لانغفل بيان أثر المناخ السياسى والبيئة وطبيعة الشعب فى اتجاهات الراى العام وفى استخدام الدعاية ، ولن ننسى أن نوضح أهمية الدراسات الصحيحة الفنية والسياسية لمشكلاتها كاحدى مواد العلوم السياسية الهامة التى لاتزال فى أولى خطوات نموها .

الفصل الأول

الرأى العام

من الصعوبة بمكان تعريف الرأى العام تعريفاً محكماً دقيقاً ، غير أنه يمكن تقريبه إلى الذهن إذا اعتبرنا أن الرأى العام هو الظاهرة الفكرية الناجمة عن الحشد الذهنى للجماعات التى يترتب عليها أقوى العلاقات الاجتماعية والنفسية للفرد ثم الجماعة ، وهى حركة اجتماعية تتأثر بما يأتى من الفرد فى إطار الجماعة وبذا توجه الأفراد جماعياً ، وفى هذه الجماعة التى تلتئم فى كنف الرأى العام نجد فكرة معينة قد اختمرت فى نفوسهم كجماعة ، كما أنها تتأثر أيضاً بمؤثرات خارجية وعوامل ثقافية واقتصادية وتربوية وحياة الجماعة وموقف الفرد منها ، والرأى العام يتكون بوحداته ثم بجماعته وهو ديناميكى أى دائم الحركة والتبدل والتطور وينقلب من ناحية إلى أخرى شأنه شأن الحياة الإنسانية والجو السياسى القلب الحول .

والرأى العام فى بلد كشيكاغو لا يتأثر بنفس المؤثرات التى فى بلد نامية من قرى الكونغو أو من قرى كشمير . فنى شيكاغو يتأثر الرأى العام بالحياة المادية الآلية وضرورة مراعاة أن الوقت من ذهب ويتضح شبح البطالة وخطرها من آن لآخر أمام رب الأسرة ويتضح خطر الحرب الذرية أمام رب الأسرة بل والحكومة كما يتراءى كابوسها فى العصابات المنتشرة فى المدينة وهى من أهم مشاغل البوليس هناك .

وينقسم الرأى العام فى الانتخابات فى الولايات المتحدة الأمريكية إلى ميل إلى الحزب الديمقراطى أو الحزب الجمهورى . أما فى قرية من قرى قلب أفريقيا فحياة المجتمع تختلف عن ذلك ، وما يشغل الافريقى الفطرى هو قسوة الرجل الأبيض وظلمه وكراهيته لهذا الرجل المتأصلة فيه وضرورة أن يحمى نفسه وأسرته من عودة الرجل الأبيض إلى استغلاله وفى حمأة هذه الحماية يفقد اتزانه وتشيع الفوضى محل النظام خصوصاً إذا لوحظ أنه لا يزال على الفطرة لا تحكمه تقاليد ثقافية وعلمية أو ماضى سياسى أو نظام حكومى مستقر أو تعليم وتاريخ وخبرات القرون ، وقد تطغى هذه العوامل على الرأى العام فى تعبيره السياسى ، لذا كان فى تقديره للأمور خاضعاً للمناخ السياسى ويصبح مرد تفكيره السياسى الغريزة والخوف من شبح الاستعمار والمجهول قبل المنطق وهذا أقرب

إلى الميتفيزيقا والسحر والمقدر لا إلى العقل، فضلا عن العوائق التى تحوق بالرقى والسير قدماً فى طريق الاصلاح نظراً لضحالة التربية السياسية فى الجماعات الفطرية التى لا تخرج من ثورة ومجزرة إلا لتلقى بأنفسها فى أحضان أخرى .

ونرى أن مشاكل قرية من قرى الهند أو كشمير هى الكفاح لبناء الدولة ومكافحة الفاقه والجوع وثقل الأعباء الملقاة على عاتق الحكومة ، التى قد تنجح تارة وتفشل مراراً فى علاجها ، ويطغى خطر الغزو من الشمال فى كشمير والنزاع على البلاد بين الجارتين الهند والباكستان على كل شىء .

وتختلف اتجاهات الرأى العام باختلاف مشكلات الشعوب ، فلا نرى مثلا فى بلاد لا يتغلغل التعصب العنصرى فيها انشغالا بمشكلات البيض والسود كما نراها فى اتحاد جنوب أفريقيا أو فى الولايات المتحدة الأمريكية وانقسام الرأى العام فى هذا الصدد ، غير أن المشكلة تتخذ وضعاً يشغل الإنسانية العالمية لحلها بما يتفق وحقوق الانسان ، ولا نرى أزمات الحكم والثورات تأخذ نفس الوضع فى كل البلدان وهى بين الحمراء والصاخبة والبيضاء والراسخة دون اضطرابات دامية وعواصف جامحة .

والدعاية بين الرأى العام التى تحقق النجاح المرجو منها تختلف باختلاف المشكلات ونفسية الشعوب ، والدعاية الملائمة هى التى تتمشى مع الأحداث وروح الشعب التى توجه بدورها هذه الدعاية . وقد تنفذ الدعاية فى شخص بسرعة بينما تجد صعوبة فى نفاذها فى عقل شخص آخر وقد يفهمها شخص فى صورة معينة بينما يفهمها آخر فى اتجاه مضاد . وقد تتعارض وجهات النظر ويتعين فى هذه الحالة طرح الفكرة على بساط البحث والنقاش لكسب الرأى العام لناحيتها ، لأن الفكر والمنطق والعقل ، هذه العوامل تجعل من البشر صوراً كبصمات الأصابع فى عقولهم ووجدانهم وضمائرهم وتفهمهم للأمور وهى لا تتشابه بحال من الأحوال ، لذا يتعين فيمن يقوم بالدعاية أن يعمل أيضاً جهد طاقته فى السير فى طريق واضح للعيان قوى التأثير فى النفوس فى جمع شملها وجعلها على قدر الطاقة الجماعية لكسب الرأى العام .

ويمكننا فى النهاية القول أن الرأى العام هو مجموع آراء الناس ووجهة نظرهم فى الحياة العامة وفى أصرار الدولة وسعيها لإسعاد الناس وفى وجوب أن تعمل الدولة أو الجماعات القومية أو الدولية فى علاج شتى المسائل والمشكلات التى يقاسى منها الفرد والجماعة .

وأهمية الرأى العام هى فى حشده الصفوف ليتجه اتجاهاً معيناً . وقوة الدعاية تتبين فى مدى إقناع الناس أو الرأى العام وفى جعله سلس القياد ، غير أنه يجب ملاحظة أن

الرأى العام لا يتجه حتماً اتجاهاً معيناً ، فشأنه شأن العقل البشرى ، ففى النظم الحزبية نرى مثلا فى الولايات المتحدة الأمريكية الرأى العام أنه ينقسم إلى ميل نحو الحزب الديمقراطى أو الجمهورى ، وكذلك الحال فى انكلترا فالرأى العام بين حزب المحافظين وحزب العمال ، وميول الجماهير تنتشر بين العديد من الأحزاب فى فرنسا ، وتطغى على الفرد والجماعة مؤثرات تختلف باختلاف الأوضاع السياسية للبلد وتاريخه ونضاله ، ففى قرية بإحدى البلدان النامية تختلف حياة المجتمع وما يتأثر به عن قرية بأوربا الغربية بلغت شأوا عالياً من المدنية ، فهناك مؤثرات معينة تأخذ على سكان الأولى عقلهم وكيانهم مثال ذلك قسوة الرجل الأبيض وظلمه والكراهية المتأصلة فى الأولين للمستعمر وضرورة أن يحمى الفرد نفسه من عودته من النافذة بعد أن خرج من الباب .

وأولى ما يجب العمل عليه لتنظيم الرأى العام : قيام نظام حكومى مستقر Cadre يقيم دعائم الدولة الوطنية ويساعد فى بناء المدائن والعمران ، وبمعنى آخر نظام وظائفى يقوم على أسس إدارية وفنية من شأنها ارساء مراسى الحكم على قواعد راسخة وتعاليم وتاريخ وحقوق للأفراد وواجبات عليهم حيال بعضهم البعض والمجتمع السياسى ، ليصبح تقديره للمواطن ثم لمجموع المواطنين فى بوتقة الرأى العام تقديراً ثاقباً ويرد الأمور إلى المنطق والمعقول والمصلحة الوطنية ولا يلجأ إلى الغريزة والحقد والسحر لقضاء حوائجه .

ووضع الفرد يختلف عن وضع الجماعة فى حلبة الرأى العام ، فالحماس والخوف من الخطر الداهم والتسرع ، هذه العوامل تكون كتلة بين مجموع الناس للرأى العام تختلف عن منطق وعقل كل فرد على حدة فى حادث لقطار السكك الحديدية مثلا أو حريق فى مسرح ، فإن نداء الخطر والخوف من عدم الافلات من الحريق والرغبة الجامحة فى النجاة تؤدى إلى التسابق دون روية إلى الخروج من الكارثة مما يضاعفها إذا لم توجه الجمهور المنكوب قيادة سليمة للتوجيه أثناء الخطر ، والحماس والاندفاع بين جماعات تثير نفوسها الأحداث وحثها على عمل معين أشد منها فى فرد أو عدة أفراد متفرقين .

وأهمية الرأى العام فى حشد قوته وتركيزها ليتجه اتجاهاً معيناً وقوته فى مدى اقتناع الجماعات وجعلها سلسة القياد ، ونرى الرأى العام ليس مجرد ازاحة خطر القنابل أو الأسلحة الذرية وليس هو لبحث مشكلة الخبز وتوفيره أو عدم توفيره فحسب بل هو لمدى أوسع نطاقاً ويتمثل فى مجموعة من الرسوم والرموز والجمل والأغانى والأناشيد والحركات التى لها تأثيرها فى تغيير الفكر والعقيدة وتصرفات الناس وهى أدوات الدعاية بين الرأى العام ، وفى هذه الحالة يصعب استخلاص قوة الرأى العام حتى يمكن أن

نطلق عليها عبارة الرأى العام فى مجرد تعدد الظواهر التى تكون رأياً جماعياً ، ويتعين فى هذه الحالة أن تكون هناك جماعة من الناس يكونون إطاراً اجتماعياً كالطبقة أو الفئة كفئة العمال أو الملاك والزراع أو الحزب السياسى كحزب المحافظين أو حزب العمال أو إطاراً له تنظيم بحكم القانون كالنقابة أو النادى أو سائر الجمعيات التى تتكون بحكم القانون ، أو قد تتكون الفكرة الجماعية للرأى العام مؤقتة بنت ساعتها إزاء محنة أو خطر ، ويصعب التوصية بالأخذ برأى عام معين والحكم على رأى آخر حكماً مطلقاً بالفساد بل يتعين لتفهم المشكلة وعلاجها دراسة الوضع القائم وكيف أن الرأى العام يعبر عن صدى صوت معين يمكن توجيه الناس وعلاج المشكلات وتلافى الخطر ويمكن تحقيق توعية ثاقبة والمسألة فى هذه الحالة ليست مسألة الانتصار لفكرة لأنها تروق للداعى لها دون جس النبض وتفهم اتجاه الجماهير ، بل أن عمق الدرس ونجاح الدعاية هما فى تحليل الرأى العام تحليلا دقيقاً ثم استخلاص الدعاية الصحيحة على ألا تكون سافرة مبالغاً فيها لكى يمكن حبكها وتوجيهها للصالح العام .

والرأى العام هذا ككل ما يحيط بالبشرية فيه وجهات وتيارات مختلفة ولكل تيار حجته ، ونرى مثلا فى قضية قديمة فى فرنسا — قضية درفيوس Dreyfus الضابط الذى اتهم بالجاسوسية فى آخر القرن الماضى وحوكم أمام مجلس عسكرى وجرد من رتبة وحكم عليه بالنفى إلى جزيرة الشيطان ، وكان هذا الحكم كما اتضح فيما بعد حكماً لا يقوم على أساس صحيح وفيه تحيز للتستر على فئة من الجواسيس الرجعيين ، واختلفت آراء الرأى العام فى هذه القضية فى فرنسا وكانت موضع مساجلات بين أقلام الكتاب ودافع الأحرار والاشتراكيون عن درفيوس واختلطت العاطفة بالمنطق وهاجموا تعنت المحكمة العسكرية وأنها كانت منقادة إلى الرجعيين فى فرنسا الذين أرادوا أن يلبسوا المتهم تهمة باطلة وفى مقدمة هؤلاء الكتاب أميل زولا وأناتول فرانس ، وانتهى الأمر بعد سنوات بإعادة النظر فى القضية وألغى الحكم وبرىء المتهم .

ونرى انقسام الرأى العام أيضاً فى الصراع حول دخول انجلترا اليوم مثلا السوق المشتركة وهل دخولها أو عدم دخولها فى السوق من مصلحة الامبراطورية ، وهل يرضى دخولها الكومنولث أو لا يرضيها ، وانقسام الرأى العام هذا هو كذلك بين الجماعات السياسية وغيرها والأفراد فى دول السوق المشتركة وبين رجال السياسة وموقفهم من السوق المشتركة فى مواجهة العضو فى السوق الآخر وفى قبول المملكة المتحدة أم عدم قبولها فى السوق

وإننا إذا طبقنا الرأى العام وانقسام وتعدد الأفكار فيه على بيئتنا وجونا العربى نرى انقسام الرأى العام فى مطلع ثورة سنة ١٩١٩ فى أولوية الوفد المصرى الذى وكلت إليه الأمة

المطالبة بالاستقلال وإنهاء الحماية الانكليزية على مصر فى تولى الوزارة والمفاوضة فى فى قضية الاستقلال مع انجلترا سنة ١٩٢٠ ، وسنة ١٩٢١ وهل يفاوض زغلول وصحبه الانكليز أوتترك المفاوضة للحكومة المصرية برئاسة عدلى يكن ووزرائه فى عقد معاهدة مع المحتلين الغاصبين ، وهذا ما يسمى فى ذلك الوقت الصراع بين الوفدين والعدليين ، وقد اشتهرت عبارة قالها زغلول رداً على وزارة عدلى فى إصرارها على المفاوضة وصارت مثلا من أمثلة الدعاية لصالح الأمة وللتاثير فى الرأى العام وهى « وكأن جورج الخامس يفاوض جورج الخامس » وعبارة أخرى قالها فى خطبة فى شبرا بمناسبة ضرورة اشتراك الوفد فى المفاوضة وترأس زغلول للوفد المفاوض ويهاجم فيها العدليين وينعتهم فيها بأنهم « برادع الانكليز » .

وكذلك رأينا الرأى العام ينقسم بعد بضع سنوات من الثورة المذكورة فى قضية سيف الدين فى اتهام النحاس بأنه ارتشى فى هذه القضية ففريق بزعامة السراى يتهم رئيس حزب الوفد بالرشوة والصحافة الوفدية وعدد كبير من رجال المحاماة وغيرهم يدفعون عنه التهمة .

كما رأينا انقسام الرأى العام فى مطلع تكوين الجامعة العربية سنة ١٩٤٤ وفى فائدتها للعرب وقد كانت جامعة دول لا جامعة شعوب ، وخاف الكثير من العرب فى أن تكون للاستعمار الانجليزى وخدمته فى منطقة الشرق الأوسط ،وخاصة أن تشكيلها سبقه تحبيذ لقيامها فى خطب وزير خارجية بريطانيا لجمع شمل الدول العربية حتى تقف حاجزاً فى وجه النازية وتغلغلها فى الشرق الأوسط .

وقد تكون الأمور جلية واضحة ونجد تيار الرأى العام يتخذ موقفاً حاسماً كموقف العرب من إعتداء اسرائيل فى مراحل عدة وكموقف مصر بشعبها متكاتفاً فى تأييد ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ والسخط الشعبى على فساد الحكم وعلى رأسه العرش وضرورة الاطاحة بالعرش وبالفساد ، وموقف بطولة الشعب وفد تكاتف بحكم التيار الكهربى الذى أثر فى الرأى العام فى اعتداء الدولتين الاستعماريتين انكلترا وفرنسا وصنيعتهما اسرائيل سنة ١٩٥٦ على قناة السويس ومصر ، وأثر هذا الرأى العام العربى فى كسب الرأى العام العالمى لصفه ورد العدوان خاسراً كسيفاً .

ونرى هذا وفيما هو بعيد عن السياسة فى تضارب الرأى العام فيما يختص بالأطباق الطائرة مثلا فنرى التفسير بين المنطق والإحساس ويرجع هذا إلى اختلاف الطبيعة البشرية، ونرى تأييد فريق للأطباق الطائرة وعدم تأييد فريق لهذه الأطباق والسخرية منها .



الفصل الثانى

ما يتأثر به الرأى العام

يتأثر الرأى العام بعوامل قد تكون بسيطة فى مظهرها ولكنها بعيدة الأثر فى نتائجها ، فإذا أردت أن تعرف حقيقة الرأى العام فى أمر فدع الرأى العام وشأنه فى التعبير عما يريده ، ولا تدخل عليه قوة لها أثرها البعيد تمثل جماعة من الجماعات السياسية أو غيرها لكى تستخلص ما تنشده أنت منها ، ويجب ترك الجماعات التى يمكن عن طريقها استخلاص ما يرمى إليه الرأى العام تعبر عما فى مكنون نفسها طليقة ، وإلا يصبح مثلها مثل من يتدخل أثناء لعب أطفال معينين بأمعان النظر فى ألعابهم ، فبطبيعة الحال تتغير تصرفاتهم وتتقيد ألعابهم ويتحفظون فى تصرفاتهم ، كما أنك إذا كنت تقوم بتحر إحصائى عن طعام معين محبب إلى الأطفال كمادة الشيكولاته لمعهد من معاهد الاحصاء أو شركة تجارية وتلقى السؤال على الطفل بهيئة آمرة أو منفرة فإن النتيجة تكون سلبية ، وكذلك إذا سألت بإلحاح فرداً عما يراه فى أمر من الأمور فإنك فى هذه الحالة تلفت نظره إلى أهمية هذه الأمور ويصبح قلقاً إذا كنت ذا شأن فى وجوب ارضائك لإبعاد خطرك عنه أو يجيبك إجابة ملتوية تبعدك عن الحقيقة وهو يعتقد أن فى هذه الإجابة انقاذاً لموقفه مثال ذلك تكرار موظف الضرائب المسئول سؤاله للممول عن ناحية معينة من النواحى الرابحة فى تجارته أو صناعته أو مهنته الحرة فإن الإجابة تكون بطبيعة الحال غامضة ولا تصل الدولة إلى حقها فى الجباية .

كما أن الرأى العام ولو أنه يتأثر بما يسمى بالألوان والأذواق التى تتفق مع شتى الطبائع وأنه يصعب مناقشة هذا الأمر فى الأفراد على نفس المستوى إلا أن الرأى العام فى حد ذاته يحتوى على فكرة المنطق والعقل وأنه ليس مجرد إحساس وليس مجرد تسلسل بل أنه يجمع بين الذوق والحس والشعور والمعقول .

وإذا كان هناك رأى عام تبلور لأمر ما فطبيعى أنه لا يعنى بهذا أنه ليس هناك إلا هذا الرأى ، فليس معنى إقامة فكرة معينة وتبلور رأى معين أنه ليس هناك أيضاً رأى مخالف ، وهذا الرأى يستند إليه فريق وضده رأى آخر يستند إليه فريق آخر ، وإن الطبيعة البشرية تأخذ بالفكرة والأخرى المعارضة حسب المؤثرات والأهواء ، وهناك رأى يقوم عليه

دليل ورأى آخر يقوم عليه دليل آخر ، ونرى هذا حتى فى العقيدة وحتى فى التوحيد وتعدد الآلهة .

والرأى العام يتسلسل من الفرد إلى الأسرة فإلى المزرعة والمصنع وإلى المقاهى والمنتديات والمجتمعات العامة ، ومن هذا التسلسل تتكون فى النهاية المجموعة الكبرى للرأى العام ، وإذا أخذنا مثلا بفكرة تحديد النسل ومنع الحمل أو محاولة الاجهاض ومشروعية المحاولة نتيجة تعاطى المرأة لدواء يصرح به التشريع وهذا الدواء يهدد الجنين بالتشويه رأينا الإنسان فى حصر فكرة الاجهاض فى حد ذاتها وكذلك ضرورة القيام بهذه العملية مع قيام حالة تشوه الجنين نتيجة تعاطى الدواء ثم فكرة عقوبة الطبيب وعقوبة المرأة التى تقوم بعملية الاجهاض فى البلدان التى لا تسلم بمشروعية العملية يصبح هذا الحصر غير ممكن وتتبلبل الأفكار وتتناقض الآراء فى هذا الصدد دون النجاح فى جس الرأى العام جساً مثمراً .

وقد رأينا قضايا متعددة فى هذا الشأن فى أوربا أخيراً ورأينا أحكاماً بالبراءة وانقسام الرأى العام فى محيط الأسرة وغيرها فيما يختص بشرعية هذا العمل أو عدم شرعيته ، وفيما يختص حتى بوجوب الحكم بالبراءة أو بالادانة .

ولكن إذا ذهبنا إلى مسائل واضحة فى أنها بعيدة عما هو خير وطيب نرى صعوبة فى أن تكون الأغلبية وتبحث فى أنه يعد عملا مشروعاً أن يقتل الأب ابنه الذى لم يعطه الاحترام اللازم ، ولم يعد سلطان رب الأسرة مطلقاً على أطفالها كما كان الحال فى العصور القبلية القديمة ، وإذا انقسم الرأى العام انقساماً واضحاً يكاد يكون متعادلا فى الحالة الأولى فإنه لن ينقسم فى الحالة الثانية ويصعب على الأب الذى يقتل ابنه أن يجد ترجيحاً فى الرأى العام لعمليته أو تأييداً لها .

ويختلف الرأى العام فى تأييد مبدأ اجتماعى باختلاف البيئة والمدنية فما يستساغ وتصعب محاربته فى قبيلة تعيش على الفطرة كأكل لحوم البشر ليس محل نقاش وجدل فى تحريمه فى المجتمعات المتمدينة ، على أن الضرورة ومواجهة الأمر الواقع ووقوع حوادث مفجعة فى هذا الشأن قد تهدم الحواجز إزاء كوارث ونكبات كالقحط وما إليه ، غير أن الأديان والنظم الاجتماعية تكسب فى النهاية الرأى العام إليها كما شاهدنا فى القرون الوسطى فى عقاب بيع لحوم البشر أثناء المجاعات بالاعدام ، كما أن اختلاف البيئة والعقيدة يؤدى إلى تضارب الرأى العام فى أمر معين فما يسلم به فى المجتمع الأوربى من تحريم تعدد الزوجات والعقاب عليه لا يرى المسلم فيه حرجاً تبعاً لتغلغل ومشروعية هذه العادة فى مجتمعه .

ويحسن أيضاً أن نشير إلى أن الرأى العام لا يقبل دائماً أحاسيس وأفكار وعواطف المختصين فحسب إذ أن الرأى العام يتخذ عملية أفقية أيضاً تتناول جس أكثر عدد من أبناء

الشعب وكلما اتسع أفقياً كلما أمكننا أن نرى الموقف بطريقة أوضح وإذا قصرنا البحث على المختصين فى مسألة عقوبة الإعدام أو إلغاء العقوبة فإننا نحصر المشكلة فى دائرة ضيقة ، مما يبعدنا عن نطاق دراسة الرأى العام والرأى فى هذه الحالة هو درس لإحساس وعواطف ومنطق الجماعة أكبر منه درس من دروس التخصص ، ولنأتى بمثل الاشتراكية أيضاً فى هذه الحالة فإن تطبيق نجاحها يتطلب بحث مشكلاتها وبحث هذه المشكلات يتطلب دراسة أحوال أكبر عدد من أبناء الأمة وسؤالهم فى متاعبهم وآلامهم وآمالهم ، وهكذا نرى أن الرأى العام هو ظاهرة اجتماعية يهمنا إدراك كنهها بمعرفة ما يتأثر به هذا الرأى العام وليس هو مجرد منطق التخصص أو بمجال من مجالاته .

وأهمية الرأى العام هو فى اتساعه من ناحية وتركيز قوته من ناحية أخرى وهذه القوة تنبعث من الجماعة وليس هناك رأى عام فى فرد واحد فحسب وهذه الجماعة تتمثل فى الآتى : —

١ — مجموعة يطلق عليها جمع أو شمل Le Groupe لها كيانها وذاتيتها ولها معان معينة كالحزب السياسى أو النقابة وفى نطاق هذا الكيان أو الصرح لها اختصاصاتها المحددة على وجه الدقة ، وقد يكون لها رئيسها ومحركها وهذا المحرك قد يكون من الكفاية لأن ينبه الرأى العام وأن يعمل على تكوين هذا الرأى العام لصالحها وأن يبلوره .

٢ — وأخرى هى جمهرة من الناس Masse هم السواد وهى مجموعة منوعة الأشكال والألوان ، ليس لها بناء محدد وتكوين ، ولا تتكون على التحديد بحكم الوقت Temps والفضاء أو المساحة éspace أى أنها لا تجتمع فى صعيد واحد وفى وقت معين لأمر معين .

٣ — ومجموعة يطلق عليها جمهور public تتركز فيه أفكار معينة ، وهو اقل تفرق واختلاف من الجمهرة ، ولهذا الجمهور اتجاه سياسى أو صفات سياسية ، مثال مثال ذلك جمهور مريد لكاتب معين أو لممثل سنيمائى أو لمطرب أو جمهور معين يغرم بلاعب من ألعاب القوى أو سائر الألعاب الرياضية أو بنوع من أنواع التبغ أو اقتناء عربات أو سيارات معينة ، ولهذا الجمهور رأى فى الأمر الذى يهمه .

٤ — وأخرى تسمى العامة La foule وهؤلاء العامة يتأثرون بالوقت وبالمساحة أو الفضاء فهم المجموعة الكبرى فى منطقة معينة ، والرأى العام عندهم يتأثر سريعاً ، ويصبح أسيراً لعوامل الخوف والرحمة والقسوة ،وخطر العامة فى أن جمهورهم شديد الحماس وسريع التأثر ، وطالما ينشد الجريمة أو السرور فى لمحة بصر ، فإذا نادى شخص فى العامة فى مقاطعة كاللوزيانا بأن شخصاً أسوداً معيناً قد اعتدى على البيئة البيضاء ولو كان

هذا النداء بالباطل فسرعان ما يتجمهر السوقة فى لمح البصر لكى يفتكوا ظلماً وعدواناً ودون تعقل وشعور بالانسانية أو المسئولية بمن اتجهت الإشارة إليه، ولوحظ أنه من السهولة أن تنتقل حماسة السوقة من فكرة إلى أخرى ويتأثر العامة بخطيب يحضهم على القيام بعمل من أعمال التعسف والعنف بالباطل وينقل غضبهم من ناحية لأخرى لصالح فكرته، مثال ذلك تأثير بروتس بعد قتله قيصر على الجماهير ، ورأينا هذا الوصف واضح فى قصة يوليوس قيصر لشكسبير وكيف يتغير رأى الجماعة فى بروتس قاتل قيصر.

ونرى فى الجمع Groupe أن الرأى العام يتأثر بعوامل أشد تعقيداً من تأثر مجموعات الرأى العام الأخرى ، فهو يتكون بناء على ضمير جماعى وارادة للجماعة تحكم فيها وجوه استمرارها ومقاومتها للعوامل الخارجية وعملها على المحافظة على شخصيتها وعلى رئيس هذه الجماعة أن يكافح باستمرار ليوجه تيار الرأى العام نحو ما تنشده ، ويتطلب الأمر تربية هذا الرأى العام وإقامة دعاية بين الجماعة.

وهناك عوامل تؤثر فى الرأى العام وتوجهه وعلى رأسها عوامل عالقة بما يكنه الإنسان فى أعماق نفسه وبتربية وخلق الجماعات ثم عوامل طبيعية واجتماعية أو مذهبية عقائدية ، وفيما يلى البيان : —

(ا) العوامل التى تتناول نفس الإنسان وخلق الجماعات :

١ — العواطف والاحساسات :

وهى تؤثر فى اتجاه تيار الرأى العام مثال ذلك ارتكاب جريمة سياسية أو عمل غير إنسانى أو مخالف للقانون الدولى وتحول الرأى العام من فكرة إلى أخرى نتيجة هذا العمل ، فإن مصرع الرئيس كنيدى مثلا والشك اشتراك بعض العناصر الرجعية والصهيونية أو قوة احتكارات الصلب وغيرها فى تشجيع التخلص منه جعل هذا الوضع الرأى العام العالمى ينحرف عن العطف على قضاياها ؛ كما أن إغراق الغواصات الألمانية للسفينة المحايدة اللوزتانيا قبل دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب العالمية الأولى وكذلك إغراق هذه الغواصات للعديد من السفن التجارية فى الحربين العالميتين الأولى والثانية هذه العوامل ساعدت فى انحراف الرأى العام العالمى عن الميل إلى قضية ألمانيا الامبراطورية ثم الفاشية والمحور فيما بعد.

٢ — العادات وهى تنبئنا عن أننا نرغب فى أمور معينة بحكم الاعتياد عليها ، ولكننا أكثر من ذلك نحبها وقد اعتدنا عليها ، وهكذا يمكن كسب الرأى العام عن طريق الدعاية لعادة من العادات المحببة إلى الشعب والتى يمكن بناء عليها أن يطلق نفسه على سجيتها وأن يقوم بأنواع التسلية ، كإباحة إقامة الموالد وحفلات رمضان دون عائق فى

مجتمع إسلامى تعود على هذا الوضع وتصبح هذه العادة طريقة من طرق نفاذ الدولة إلى نفس الشعب وكسبها للناس .

٣ — الخلق وهو يتمثل فى صفات الإنسان على أن هذه الصفات مهما كانت من طبائع مختلفة فلها قاعدة واحدة فإذا كان هناك أفراد مختلفو الطبائع والخلق ، ففى مجموعهم هناك المحافظون وهناك المطيعون وهناك الثوار والمعقولون وهناك النفعيون ، وفى نطاق هذه الصفات الخمس علينا أن نحدد ماذا يعنى بالخلق فى نطاق الجماعة .

وكل هذا توجهه إرادة السيطرة على هؤلاء المجتمعين فى صعيد مادى أو معنوى ، ويتعين على الرئيس المحرك لهم بأن يكسبهم بروحه وقلبه حتى يمكن أن يوجههم ويمكن أن يقوم بدعوة بينهم دون أن تتعرض هذه الدعوة إلى الخطر أو إلى البوار .

والرأى العام هذا هو ناحية من نواحى النشاط الإنسانى الرئيسى ويشبه إلى حد ما فى دراسته العلوم ، لأنه يعالج مسائل خاصة بأسباب ونتائج ، واتجاهات الجماعات ويحاول أن يبرر هذه الأسباب وأن يبين كيف تذلل الصعاب التى تعترض مشكلات الجماعات .

وهو كذلك يحتوى على كثير من الدراسات الخلقية ، لأنه فى دراساته يشتمل على كثير من المسائل التى تحكمها قواعد قد تقوم دائماً على المنطق والمعقول فى كثير من الأمور ، وهو يشبه فى هذه الحالة الدراسات العقائدية ويسلم زمام الأمور للقائد فى كثير من الأحوال بناء على العاطفة والحماس لا على المنطق والمعقول وللمتمسك بأهداب الرأى العام صفات التأكد من نفسه ومن نجاحه ، ونرى فى تصرفات الجماعة أيضاً أعمالا ترمى إلى انقاذ الشعوب من ورطاتها وكذلك انقاذ الضمائر من جرأة تصرفاتها .

فنرى مثلا الرأى العام يتجه نحو تعديل دستورى أو تغيير لحكومة تعذر عليه أن ينشد السعادة ويحصل عليها فى نظامها ، كما نراه ينبذ فكرة تسعى إلى التأثير فى المجموع ولكنها تبعد المرء عن الخير ، فنرى أن يتجه إلى ناحية اصلاحية جديدة ، وهذا هو المشاهد فى اتجاه الرأى العام فى الكفاح الدستورى وكفاح القوميات فى منتصف القرن الماضى ، وفى صراع الجماعات فى سبيل حقوق الإنسان وحريته فى العمل فى دساتير ما قبل الحرب العالمية الأولى ، فى مضيه قدماً لدعم الحقوق السياسية والمساواة القانونية بالعدالة الاجتماعية وبالحقوق الاقتصادية للطبقات العاملة .

وهناك عوامل تؤثر فى الرأى العام معنوية وكذلك هناك رد فعل لها ، وهناك مؤثرات طبيعية تؤثر فى الرأى العام ويتغير الرأى العام من جهة إلى أخرى طبقاً لهذه المؤثرات . كذلك عوامل أو مؤثرات اجتماعية فى الرأى العام وهناك عوامل أو مؤثرات دستورية فى الرأى العام .

(ب) العوامل الطبيعية :

هناك أيضاً عوامل طبيعية تؤثر فى الرأى العام وهذه العوامل مبعثها البيئة والوضع الجغرافى والجو أو المناخ .

وفيما يختص بالبيئة نرى أن بيئة معينة تقوم على أساس الرعى وتربية الماشية والتنقل المستمر ، وينشغل الرأى العام فيها بالأخطار المحيطة بالقبيلة وبالعمل على درء هذه الأخطار وعلى تنبيه الرأى العام فيها إلى الاستعداد والرحيل بين آونة وأخرى فى سبيل العشب والرعى ، يوجه الرأى توجيهاً يكاد يكون عسكرياً للقيام فى أية لحظة بغزوات لتحقيق حاجات القبائل أو للرحيل ، كما رأينا فى غزءات التتار لأوروبا وفى استعداد هذه العشائر للهجوم على السهول الغنية من أوروبا حتى روما وهذا ما كان من قبائل وجيوش الهانز واتلا .

كما نرى أن البيئة تعد الرأى العام فى المناطق الصناعية غير الأعداد فى المناطق الزراعية ، ونرى أن المنطقة الزراعية فى جنوب الولايات المتحدة الأمريكية فى منتصف القرن الماضى وكانت فى حاجة إلى عدد وفير من الفلاحين كان الرأى العام فيها يعارض فكرة تحرير الأرقاء السود ، بعكس الشمال الذى اشتغل بالصناعة وكان من مصلحته تحرير العبيد لكى يقبلوا على المصانع ويمكن تشغيلهم بأجور أقل ، وهذا بدء نشأة الدعوة لتحرير الأرقاء هناك ، وكانت حرب الانفصال الأمريكية من سنة ١٨٦١ إلى ١٨٦٥ ، إذ رفضت ولايات الجنوب وهى تزرع القطن وتحتاج للعبيد الذين يزرعون ملايين الأفدنة دون مقابل وهم جزء لا يتجزأ من الأرض فكرة التحرير ، ولم تقبل بأى حال من الأحوال فكرة المساواة بين الأجناس فالمصلحة الاقتصادية والطمع فى المزيد من الثراء واستخدام اليد العاملة بالسخرة ، هذه العوامل طغت على المبادىء الإنسانية والدستور الاتحادى الأمريكى ، وبذلت ولايات الشمال الجهد فى الدعوة فى سبيل تحرير العبيد لأنها تريد عرضاً واسعاً من الأيدى العاملة لسد طلبات المصانع فى العمال بأجور معتدلة وخاصة من السود مما أدى إلى اصطدام المصالح وقيام حرب الانفصال الأمريكية ؛ وذلك فضلا عن اختلاف مصالح الطرفين فى التجارة الخارجية فالشمال يريد حماية جمركية لصناعاته والجنوب لا يريد حماية جمركية لتشجيع صادراته من القطن حتى لا يعامل معاملة المثل فى هذه الحماية الجمركية .

كما نرى أن هذه البيئة برأيها العام لها مؤثرات فى الأدب من شعر ونثر وما سوق عكاظ مثلا إلا صدى لصوت القبائل العربية المنتشرة فى شبه الجزيرة والتى تنشغل بمباشرة وبكفاح عناصر الطبيعة وبحروبها ثم يقدم أفصح أبنائها أزخر وأغزر وأقوى الشعر للسوق

الذى يجتمعون فيه بين حين وحين وهذا الشعر مرآة للبيئة ولمشكلات المجتمع ولصوره المختلفة فى الشجاعة والبكاء على الدار والحنين إلى القبيلة .. الخ .

وعلاوة على البيئة هناك العوامل الجغرافية ومن أهم من كتب فيها من العرب ابن خلدون ، ومما لا شك فيه أنها تكيف الشعب اجتماعياً وسياسياً وفق تربة وموقع البلد وهذا ما درسه كثير من الكتاب ، والعامل الجغرافى فى البلدان الزراعية يكون الرأى العام من سواد الفلاحين وهو أبطأ تطوراً من بلاد صناعية يتكون الرأى العام فيها من العمال والدعوة بين هؤلاء غير الدعوة بين الآخرين .

ويمكن تطبيق فكرة الموقع الجغرافى أيضاً فى طبيعة سكان شواطىء البحار وسكان الجزر وسفوح الجبال ، والدعوة بينهم غير الدعوة بين سكان الجبال ، وسكان شواطىء البحار من مصلحتهم أن يركزوا الدعوة ويلقوا عليها أضواء من النور والزهو الوضاح ، وأن تظهر أعلامهم فى مظهر المنار لإرشاد السفن ايلا ، بينما أن سكان الجبال تظهر الأعلام عندهم لارشاد المسافرين وعابرى سبيلهم وممراتهم فيما يوقدونه من نار على سفوح وقمم الجبال .

وكذلك الحال فيما يختص باليونان القديمة ، فالعوامل الطبيعية ووضع كل مدينة ووعورة الجبال وكثرة المسالك وتضارب الطبائع والمصالح ، كل هذه العوامل وجهت البلاد والرأى العام فيها توجيهاً يختلف فى المنطقة عن الأخرى وإن كان قد اجتمع الرأى العام على إقامة عصبة اليونان القديمة ، وكان هذا الاتجاه لدرء الخطر عن المدينة أو العصبة ، وفيما يختص بمدينة اسبرطة القديمة كانت تقوم نظمها على أساس توجيه عسكرى صارم ، وفيما يختص بأثينا كانت نظمها تقوم على أساس ديمقراطية مباشرة . أما مدن اليونان جملة فكلها تستجيب إلى فكرة إقامة عصبة من مدن اليونان القديمة وجزرها لدرء خطر الفرس عنها ولعلاج مشكلاتها بطريق التحكيم وحسن التفاهم ، والألعاب الأولمبية فى اليونان القديمة لم تكن إلا صدى صوت الرأى العام الذى كان يمجد البطولة والقوة وتربية الجسم تربية صحيحة وكان التعاون ثم التنافس بين مدن اليونان القديمة وعوامل الجو لها أثرها فى الرأى العام أيضاً .

وأثر الموقع الجغرافى والمناخ يتضح أيضاً فى أن الرأى العام فى البلاد المشمسة ذات السماء الصافية والزاخرة بالنضارة ذات الزرع والضرع ينبلج صبح هذا الرأى العام واضحاً فيها ويصبح فى الأسواق وفى العراء وهذا ما شوهد فى نشاط الفكر وتبادل الرأى ومطارحة الحجة بالحجة فى اليونان القديمة وخطبائها وفلسفتها ومحاورات مفكريها هناك ، وفى مجادلات الأسواق العامة فى شمال أفريقيا منذ التاريخ الغابر وفى اجتذاب الخطباء لشعوب

حوض البحر الأبيض المتوسط ، وقصة يوليوس قيصر لشكسبير وخطابة بروتس قاتل قيصر ثم الرد عليه خير دليل على ذلك .

ونرى الرأى العام فى صورة مختلفة فى المدن المعتمة المليئة بالضباب الباردة الطقس ، وهو ينحصر فى اجتماع الكنائس وفى المقاهى والحانات كما هو مشاهد فى بلاد الشمال ويصعب فى الجو القاسى جمع جمهور الناس فى صعيد واسع مفتوح وتصبح قوة الرأى العام فى العمل فى صمت مع التعاون فى سبيل البناء وهذه العوامل الطبيعية توحى للرأى العام بالدفاع عن سياسة معينة .

وفى المدن المعتمة الباردة نرى الرأى العام شغله الشاغل هو توفير الرزق والقوت والسكن الذى يتفق مع وجوب دفع أذى شدة البرد والشح ، ونرى تشجيع القوانين وجهود اتحاد المدن القديمة كاتحاد هانزا وغيرها تنشغل بهذا الأمر ، بينما أن الشغل الشاغل لسكان البلاد الدافئة والحارة ، وقد توفرت لديها الأقوات والمئونة إذهى فى غير حاجة كبيرة إلى كميات من الأغذية لدفع البرد عن الفقراء أو إلى لباس ثقيل كأهل الشمال ولا تهددها مشاكل السكن ، نجدها تنشغل بأظهار الفصاحة والخطابة ومطارحة الحجة بالحجة والبريق ، وليس ثمة مشكلات مأوى أو طعام خطيرة على وتيرة أهل الشمال ، وهكذا نرى فى بلدان المناطق المعتدلة والمعتدلة الحارة الانصراف إلى حياة سياسية مليئة بالمفاجآت تبرز واضحة فى تاريخ حوض البحر الأبيض المتوسط .

(ج) العوامل الاجتماعية :

العوامل الاجتماعية وهى من صميم تطور حياة الأسرة والعمل . فنرى قيام الأسرة على أسس قديمة وقد أملت بها الأديان وكذلك ظهور رأى عام يجمع شعوبه وفكرة الدفاع الوطن على أساس مصلحة رب الأسرة والدفاع عن الملكية الفردية على أساس فكرة رعاية رب الأسرة لمصالحها رعاية طيبة وهكذا عبقرية روما القديمة وتنظيمها للمدينة ونشرها مبادىء الملكية وإقامة دعائم الأسرة وما جاء فى أعقاب ذلك من قوانين ، ثم ما رأيناه بعد ذلك فى التشريع الإسلامى الحكيم .

كما أن هذه العوامل الاجتماعية وتطور كفاح البشرية جاءت بفكرة حقوق الإنسان ، وليست حقوق الانسان إلا صدى للقوى المعنوية التى كافحت فى آخر القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر لتحطيم سياسة الدولة المطلقة وفكرة الحق الالهى ، وجاء نظام هو صدى صوت الرأى العام أساسه هدم الفوارق بين الطبقات على أساس المساواة وتآخى الناس ؛ وعلى أساس أن النظام القديم قام على محاربة الفرد للآخر مما يجب الاقلاع عنه وإحلال الطمأنينة على النفس البشرية وعلى أساس العدالة وأن يقف الجميع أمام القضاء على قدم المساواة .

وهكذا انبعثت الثورة الفرنسية وبقية الثورات الأوروبية من هذه المبادىء وبعثت أفكاراً فى الجماعات وكانت تعبيراً عن قوة الرأى العام ثم مرآة له واتجهت توجيهاً فردياً وبالغت فى هذا التوجيه فكانت حرية العمل التى هدمت نظام الحرف وحرية الامتلاك الفردى التى هدمت حق المصادرة وحرية تبادل المنافع وحرية هدم القيود التى أزالت النظام الاقتصادى للدولة التجارية الميركانيتلية .

ثم كان قانون العمل الذى صدر فى فجر الثورة الفرنسية المسمى قانون شابلييه Loi Chapelier وأثر ذلك فى اتجاه الرأى العام فى ذلك الوقت ، الذى يجعل للفرد مطلق الحرية فى أن يعمل فى الجهة التى يستسيغ العمل فيها بلاقيد ، وكان النشيد الوطنى الفرنسى هو صدى الانسانية تتردد فى أنحاء فرنسا ويستسيغ الفرد الاستماع إليه فيما وراء البلاد الفرنسية إذا اعتبرنا أن الثورة الفرنسية بمبادئها الإنسانية وبأخذها بآراء فلاسفة القرن الثامن عشر ثورة عالمية ، ثم جاء الانقلاب الصناعى فغير الأوضاع وجعل الرأى العام يتجه نتيجة هذا الانقلاب إلى توجيه العمل نحو حرية منظمةوضرورة اشتراك العمال فى التشريع ووجوب حماية اليد العاملة عن طريق القوانين والاعتراف بالنقابات ، ولا أقل من أن يمثل العامل تحت قبة البرلمان بحزبه اليسارى الذى ينتمى إليه دون ما عوائق مالية تتناول تحديدالنصاب المالى للناخب والنائب مع وجوب أن يكون الانتخابمباشراً وكانت ثورات منتصف القرن الماضى التى نجحت فى هدم النصاب المالى فيما يختص بالناخب كما جعلت الانتخاب مباشراً وعلى نطاق واسع وبدأت الحكومات تعنى بالتشريع للعمال وبالاعتراف بالنقابات والهيئات العمالية . وبدأ العمال يشتركون فى البرلمانات وتكونت لهم الأحزاب السياسية إلى أن وصلت اليوم إلى التخطيط الكامل لحياة الأفراد والجماعات تضطلع به الدولة مع تأييد الرأى العام لهذا التخطيط تبعاً لتكالب المشكلات على الناس وصعوبة مواجهة الشعوب للأزمات بلامعونة الدولة وتدخلها .

والخلاصة أن منتصف القرن الماضى الذى تردد صدى صوته أيضاً فى فنون ذلك الوقت والموسيقى والأدب والكتابات مثل ألحان ستراوس تنبىء عن انفجار الشعب ، وألحان شوبان تنبىء عن الحنين إلى أرض الوطن البولونى وإلى كفاح القوميات وقصة البؤساء لفكتور هوجو وغيرها من قصص الكوميديا الإنسانية لبالزاك وفى صدر دساتير كدستور الجمهورية الثانية فى فرنسا يعنى بالمسائل الاقتصادية وتنظيمها وصدور قوانين عمالية متعددة وحماية المرأة فى المصنع والكفاح فى سبيل تحديد الأجور الدنيا للعمل ، وساعات العمل واضطرابات العواصم الكبرى ومظاهرات الشوارع وتحطيم الجماهير الساخطة لما يصادفها فى الشوارع والأزقة فى باريس وفيينا ولندن وغيرها وكذلك نداء كارل ماركس الذى يقول فيه « ياعمال كافة البلدان اتحدوا » وقد خرج للجماعات

باشتراكيته العلمية فى زعمه التى يبنيها على أساس المنطق المادى للتاريخ وهدم النظام الرأسمالى الفردى ومواصلة الكفاح بين الطبقات فى سبيل سيادة البروليتاريا ، كانت هذه الصور المتعددة وفى طليعتها كفاح القوميات فى ايطاليا وألمانيا وشرق أوربا وقد انطلقت جماهير الشعب تريد تحقيقاً حقاً لسيادة الشعب والسيادة القومية هى مرآة تطور الرأى العام وأهميته فى تطور الحياة الاجتماعية .

(د) العوامل الاجتماعية أو المذهبية فى الرأى العام :

هذه مؤثرات غير ملموسة ومواردها الحياة الاجتماعية والإحساسات ومدى استعداد وثقافة شعب من الشعوب أو طبقة من الطبقات ، ومايؤثر فى الرأى العام من الناحية المعنوية مجموعة عوامل توجهه وأهمها العقيدة ، والعقيدة الدينية ، وهى عامل معنوى هو الذى يجعل الرأى العام ينحو نحو نتيجة بدعوة من الدعوات يتأثر بها أشد الأثر فإذا قمنا بدعاية معينة لدى شعب متدين يدين بالإسلام مثلا ، وهى تحارب فكرة تعدد الزوجات بلا قيد عليها أو فكرة عدم إباحة الخمر أو فكرة حقن دم أشخاص معينين أو على أساس تغيير أوضاع تقوم عليها الأسس الإسلامية أو يقوم عليها الميراث فان الآثار المعنوية لن تنال من الجذور المتأصلة فى الشعب بعقيدته الإسلامية والنتيجة أن العقيدة تجعل هذه الدعوة ضعيفة أو لاجدوى لها .

وكذلك الحال إذا قمنا بدعوة لدى المسلمين تتناول أكل لحم الخنزير أو لعب الميسر . . الخ . وهذه الكبائر يحرمها الإسلام ولايقوم عليها المجتمع الإسلامى الإنسانى بحال ، فلن تنال الدعوة القبول فضلا عن نبذ المجتمع الإسلامى للقائمين بها .

ويمكن إذا أردنا فعلا نجاح سياسة معينة أو اتجاه اجتماعى معين للساعة أن نقوم مثلا بالتأثير على أساس اتحاد العالم الإسلامى واتحاد العالم العربى القائم على الفكرة الإسلامية والفكرة العربية ، وبلاشك فإننا نجد آذانا صاغية وروحا تتقبل هذه الدعوة .

كذلك الحال فيما يتناول نشر الثقافة والفكرة العربية لدى الشعوب العربية فإنها إذا قامت على أساس سياسة سمحاء وهدفها المحافظة على دعائم الحضارة العربية فى الوطن العربى الحديث وألا تطغى البدع الحديثة وقشور المدنية الغربية على ذاتية العالم العربى ، فإن هذه الدعوة تصادف قبولا وتجد مناصرين متحمسين لا لتأييدها فحسب بل للكفاح فى سبيل تحقيقها .

ومن الآثار المعنوية التى رأينا قبولا لها فى العالم الإسلامى دعوة جمال الدين الأفغانى فى هذا العالم ، التى قامت على أساس إعادة بناء صرح العرب والمسلمين السياسى والاجتماعى وفقاً لتطور العالم ، وعلى اساس قبول الدين الإسلامى للتطور وأن الإسلام

لا يتنافى مع الأخذ بأسباب المدنية وأن محاربة الغرب والاستعمار وطمع أوروبا فى الشرق يجب أن تقوم على أساس الأخذ بالمدنية الغربية والجمع بين الفكرة الغربية والحضارة العربية ، وأنه يتعين محاربة الغرب المتجنى على الإسلام والخلافة بنفس سلاحه ويجب اعتناق حضارة القوى مع تدعيمها بالعقيدة ومعنى هذا تعلم العلوم الحديثة من هندسة وكيمياء وطبيعة واقتصاد .. الخ ، وأنه لايفل الحديد إلا الحديد ويتعين تعلم استعمال الأسلحة الأوروبية الحديثة لمحاربة الطامعين فى الشرق من الأوروبيين المغتصبين بنفس أسلحتهم .

ورأينا كيف تغلغلت عقيدة الحريات الطبيعية للإنسان للقضاء على نظام الطبقات الظالم واضطهاد الحكام والبلاط فهجمت صفوف الشعب فى مطلع الثورة الفرنسية على حصن أوسجن الباستيل باعتباره رمزاً للاستبداد رغم فقدانه خطره فى أوائل الثورة ، ودكت معالمه وكان هذا بمثابة رمز نهاية الاستبداد والنظام القديم فى فرنسا ، ويحتفل بهذا اليوم وهو ١٤ يوليه إلى هذه الساعة .

ومن الآثار المعنوية البعيدة المدى فى الشعوب ما تحس به من ظلم ومن كبت ومن وجوب الكفاح فى سبيل تحطيم سلاسل الظلم ، وتتأثر هذه الشعوب بالدعوة ضد الاضطهاد وسرعان ماتنظم صفوفها فى سبيل هدم حصون الاستبداد ، وكذلك عملت الإنسانية منذ بدء التاريخ فى هذا السبيل وقد تأثر العامة وسواد الشعب وكان يكون من الأرقاء وأنصاف الأرقام ضد الرق وقسوته ، وكانت النتيجة تحطيم سلاسل الرق ثم تحطيم الإقطاع وفكرة أنصاف الأرقام ثم قامت طبقات بورجوازية على أساس نشاط المهن الحرة وتبادل التجارة والمنافع ، والتف الرأى العام فى ذلك الوقت أى فى أواخر القرن الثامن عشر حول فكرة محاربة الحكم المطلق على أساس الحق الإلهى ولإقامة دعائم جمهوريات أونظم حكومات تناهض حكم الملوك المطلق المستمد من الحق الإلهى واستمر الكفاح مريراً بين الطبقات وقد أثرت البورجوازية من الانقلاب الصناعى وانتشار الشركات والمصانع ،واتخذ طابع الصدام بين البورجوازية المالكة والعمال الذين يريدون تمثيلا نيابياً على أساس هدم النصاب المالى للناخب كما سبق أنذكرنا ولتعطى لهم فرصة المثول تحت قبة البرلمان والاشتراك فى التشريع مع حماية العامل وتحديد أجوره الدنيا وساعات العمل وسائر التشريعات الاقتصادية والضمانات والعدالة الاجتماعية .

وهكذا رأينا تطور الحياة الإنسانية مصحوباً بآثار معنوية عميقة تؤثر فى الرأى العام وتنبعث منها تطورات وثورات تتبع الحياة السياسية الدائمة الحركة وفى هذا ماينبىء عن سير الإنسانية وعن تطورات الرأى العام .

الفصل الثالث

القاعدة الأساسية في الرأى العام

يعنى هنا بالقاعدة الأساسية فى الرأى العام الجو والحياة السياسية والاجتماعية واتجاهاته فى نضاله وروح العصر ومدى تحقيق الشعب لأمانيه وفلسفته السياسية فى الحكم والجمع بين الفاسفة والتجارب من استنباط إلى استقراء وبالعكس وأثر كل هذه العوامل فى الجماهير وفى تكوين رأى عام ، وبناء أساس لهذا الرأى لتقوم دعاية قوية الدعائم يستجيب لها الرأى العام ، كذا يمكن للرأى العام أن يعبر عن أمانيه تعبيراً قوياً بناء على هذه القاعدة .

ورأينا منذ منتصف القرن الماضى اتجاهين لهذه القاعدة ، وذلك منذ أن بدأ الرأى العام ينمو نمواً يجعل منه قوة يعتد بها بعد أن جاءت ثورات آخر القرن الثامن عشر وفى مقدمتها الثورة الفرنسية بتعاليم جديدة وحررت المواطنين من التمييز بين الطبقات وجعلتهم يحلقون فى سماء الحرية الفسيحة وحقوق الإنسان ، واتجه تكوين الرأى العام طوال القرن التاسع عشر حتى مطلع القرن الحالى على أساس القاعدة الحرة ، ثم تحول نتيجة تعقد مشكلات الحياة الخاصة والعامة وتكالب الأزمات فى أعقاب الحربين العالميتين الأولى والثانية وصعوبة مواجهة مشكلات حياتنا اليومية والأزمات الاقتصادية والاجتماعية بدون تدخل الدولة إلى سياسة توجيه الرأى العام بواسطة الدولة ، وفيما يلى البيان :

أولا : اتجاه على أساس القاعدة الحرة دون قيود :

وهذه القاعدة قامت على أساس سياسة الحربين والحركات السياسية الواسعة النطاق فى القرن التاسع عشر . ويعنى بالقاعدة الحرة أن يعيش الفرد فى جو وفى نظام سياسى فردى تقدس فيه حريات الإنسان وحقوقه إلى أقصى الحدود ويعتبر شخصه ومايملك من الحقوق المقدسة التى لا تمس ، ولاتتدخل الدولة إلا بقسط ضئيل لحماية حريته وهو حر طليق فى اختيار العمل الذى يريده . وفى التعبير عن رأيه دون وجل وله أن يقوم بما يعن له من نشاط ومنافسات فى شتى الميادين، وموقف الدولة منه سلبى إلابقدر الحماية وهى حارس على هذه الحريات وتتدخل لكى تحمى هذه الحريات على أساس حرية

الرأى والعقيدة والاجتماع وحرية المنافسة واللجوء وحرية الصراع السياسى من أى نوع ، وهذا ما عبر عنه فى دساتير الثورة الفرنسية وما بعدها فى أن حقوق الإنسان تتجلى فى سيادة الشعب وسلطان السيادة القومية وفى الكلمات الثلاث التى تغنى بها وهى الحرية والإخاء والمساواة وتمسك هذا النظام بأهم ماهدفت إليها لإنسانية فى ذلك الوقت وهو حرية العمل وحرية الامتلاك وحرية الرأى والعقيدة والاجتماع . وحرية العمل جاءت بها الثورة الفرنسية للقضاء على ما كان العمل به قبلها وكان نظام الحرف ثقيلا قاسياً وقيد المرء بحرفته التى تأتيه عن طريق الميراث غالباً ، وحرية الامتلاك مع قدسيته لأن الامتلاك لماقبل الثورة كان يقوم أساساً على المصادرة فى أى وقت لصالح التاج أو الحكومة وعبرت الثورات عموماً عن هذه الفلسفة بالثورة الإنكليزية منذ قيام الدستور الإنكليزى الأول بالاتفاق بين النبلاء والتجار والملك فى القرن الثالث عشر واستمرار هذه الفكرة فى الدساتير الإنكليزية المتتابعة بعبارتين مشهورتين وهى المثول أمام القضاء شخصياً للمحاكمة . «هابياس كورباس» Habeas Corpus أى عدم جواز الاعتداء، وعبرت عن ذلك بتحريم الاعتداء على الفرد وسكنه والقبض عليه بلاوجه حق الثورة الأمريكية فى صميم دستورها بالمساواة بين الناس ويقصد بها المساواة أمام القانون والمساواة السياسية وحرية العمل والاتجاه والنشاط الاقتصادى كما كان هذا بترديد لعبارة باتريك هنرى فى الجمعية الثانية التى انعقدت فى ريشيوند من أعمال فرجينيا فى مطلع الثورة الأمريكية يقول فيها « لا أدرى أى طريق يريد غيرى أن يسلكه يا إلهى الجبار امنع هذا . . وفيما يختص بى أعطنى الحرية أو اعطنى الموت » . وفى هذا الجو بدأ يشتد ساعد الرأى العام فى القرن الماضى وبدأت تتكون حشود من العمال ساعدها على ذلك قيام المصانع نتيجة الانقلاب الصناعى وأخذ الناس يتناقشون فى اجتماعات عامة والطبقات المثقفة فى الصالونات ورجال الفكر فى النشرات والصحف والمحاضرات وبرلمانات الأحزاب وبدأ يتكون الرأى العام لتحقيق المبادى المذكورة وعلاج الأدواء التى تظهر نتيجة النمو الاقتصادى .

وكان يبالغ فى ترك الفرد وشأنه مع وقوف الدولة موقفاً سلبيا من مشكلاته .

وجاء منتصف القرن الماضى كما سبق أن ذكرنا يهدم النصاب المالى للناخب ويطالب بحماية العمال والمرأة والطفل فى المصنع وتحديد الأجور الدنيا وساعات العمل وأن تقوم دساتير على أساس سلطان الشعب لا على أساس أنها منحة من الملوك وأن يعترف بالنقابات وأن تأخذ وضعها كقوة من قوى الرأى العام فى ميدان العمل . ولكن كان الجو عموما يقوم على حريات سياسة الحربين وسلبية الدولة ، وهى تحصر جهدها فى العبارة الآتية « دع الأمور تجرى فى أعنتها » أو دعه يسير دعه يعمل «Laissez passez laissez faire

ونشاطها لايتعدى القضاء والبوليس والجيش وفيما عدا ذلك فالأمر متروك للتنافس وللفرد ، كما لاننسى أن نذكر أن هذا الجو كان مهد قوة الرأى العام والاستجابة إلى ثورات الجماهير وإلى اتجاهات الفكر سواء عن طريق خطباء الثورات المتعاقبة فى فرنسا أو الاشتراكيين من فلاسفة الكراسى الجامعية فى ألمانيا ويطلق عليهم باشتراكيى الكراسى الجامعية وسائر الذين تغنوا بالحريات على أساس القومية فى ايطاليا وألمانيا .

هذا الجو قام فيه رأى عام هدم الحكومات الرجعية وكان له أثر كبير فى سياسات الحكومات وفى انطلاق عنان الحريات ، ثم فى تنظيمها فيما بعد ، ومن أهم هذه الحريات لاإطلاق العنان للصحافة والفكر فحسب بل الذهاب إلى حدود بعيدة فى الحريات وإطلاق حرية العبادات ومكافحة الرق وإقامة الصراع الاقتصادى على أساس حرية المنافسة وفتح الأبواب على مصاريعها للصادرات والواردات ثم تنظيم الحريات الاقتصادية فيما بعد حتى لايؤدى استعمال هذه الحرية والتعسف بها إلى الإضرار بمصالح الفرد ، كما كان العامل ضعيفاً مهيض الجناح إزاء جبروت الرأسمالية الصناعية الجديدة النشأة ، فهى التى تفرض عليه شروطها ، وكان من الضرورى أن يتدخل المشرع لتنظيم العمل ووضع حد أدنى للأجور وحد أقصى لساعات العمل وحماية الطفل والمرأة فى المصنع وتقرير تعويض للعمال عن إصاباتهم ومعاش للمتقاعدين من العمال والأرامل ، وكان من الضرورى التشريع لتنظيم النقابات ، ورأينا دستور الجمهورية الفرنسية الثانية سنة ١٨٤٨ ينص على مبادئ اقتصادية لتنظيم هذه الحريات ، ورأينا نتيجة قوة الرأى العام اشتداد ساعد النقابات فقيام أحزاب للعمال فى النصف الأخير من القرن الماضى تقوم بنشاط سياسى يعتد به نتيجة لبدء الاهتمام بمطالب العمال وقيام سياسة جماهيرية تتمشى مع أمانى سواد الشعب من الطبقات العاملة ومن الطبيعى أن تقودهم صفوة واعية . هكذا كان اتجاه الرأى العام وهكذا كان صوته وصدى الصوت وتلاقى تيار الرأى العام مع تيار الحكم ورأينا صحافة وخطابة وحكومات وتفكير يتفق مع هذا الجو حتى قيام الحرب العالمية الأولى .

ثانيا : اتجاه على أساس قاعدة التوجيه :

لم يعد الرأى العام اليوم يعيش فى الجو الذى وصفناه فى القاعدة الأولى إذ بدأت أزمات الحرب العالمية الأولى والعواصف التى هبت نتيجة الحرب الشاملة التى رأيناها فى الحربين العالميتين الأولى والثانية كما صارت على نطاق أوسع فى الحرب العالمية الثانية ، وتتابعت الأزمات تبعا لتراكم الديون العامة على الدول واستنزاف أموال الحكومات والشعوب نتيجة الحرب ومحاولة بناة السلام فى فرنسا أن يعيدوا إلى العالم جو الاطمئنان

على أساس حريات شاملة كما كان الوضع فى أول القرن الحالى دون جدوى ، ثم جاء بعد ذلك من الأزمات الطاحنة ماتعجز عن علاجه الشعوب التى تعيش فى حرية كاملة دون تدخل الدولة ، وانتشرت البطالة والكساد وهبطت الأسعار وتكدست الحاصلات ، والمنتجات دون إقبال عليها وعجزت الحكومات عن الوفاء بتعهداتها وزاد الطين بلة إفلاس البنوك والمصانع وشلل التجارة الخارجية وارتفعت العوائق الجمركية واتبعت سياسة تقوم على الاستعداد للحرب العالمية الثانية على أساس الاكتفاء الذاتى ومبالغة دول المحور فى هذا السبيل .

وألحفت الشعوب نتيجة اشتداد الأزمة الاقتصادية لسنة ١٩٣٠ وما بعدها فى أن تتدخل الحكومات لإنقاذ العالم من البطالة والكساد وهبوط الأسعار وشلل التجارة الخارجية وانهيار العملات وضرورة العمل على تحديد الأسعار وتنسيقها وايقاف هبوط البورصة وانقاذ الزراع من نزول أسعار الحاصلات إلى أقل من نفقات انتاجها فكان الرأى العام فى حماس شديد لكى تعدل الحكومات عن السياسة السلبية وأن تنزل إلى الميدان لتقوم فيه بعمل إيجابى لمعالجة هذه الأمراض الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الخطيرة .

وأصاب الداء العصر فى جراثيم اجتماعية أصابت الصحافة فجعلتها هى أيضاً تحيد عن رسالتها وتتحايل على الربح وتنزلق إلى سياسة بعيدة عن الخلق السياسى والضمير من نشر الأخبار الكاذبة لجذب القراء حتى عن طريق إذاعات للجماهير ومن القيام بتحريض بالباطل فى نطاق واسع فى سبيل كسب حزبى مع نشر الفضائح الخاصة وأخبار الأسرات المرموقة لكى تجذب القراء ولايقصد بالحرية المطلقة كل هذا .

وكافة هذه الأوضاع تطلبت تنظيما جديداً ودخل العالم فى دور جديد من التجارب منذ ما بين الحربين العالميتين ، ونحن الآن نسير فى هذه السياسة وهى سياسة موجهة وتخطيط وتنظيم وتدخل من الدولة لعلاج المعوج مما خلفته الحروب والأزمات .

وعجز الساسة عن فهم روح العصر فى صلح فرساى وفى اتفاق التعويضات ، وعجزت الحكومات عن مكافحة البطالة التى بلغت فى العالم قبيل الحرب العالمية الثانية أكثر من ثلاثين مليون نسمة مما حدا إلى الاتجاه نحو سياسة تنظيم وتوجيه الحياة الاقتصادية والاجتماعية والحريات لصالح الشعوب وكان تدخل الدولة كما شرحنا بناء على ضغط من الشعوب لمكافحة الأزمة منذ سنة ١٩٣١ ، ثم تطور هذا التدخل إلى التخطيط نتيجة نزول الملايين الجدد من أبناء الشعوب الجديدة فى الأسرة الدولية التى استقلت وهى

فى نطاق الشعوب النامية ولها رأيها العام فى تنظيم العالم ثم تدخل يكاد يكون جماعى من الأسر والشباب والشيوخ وجمهرة العالم فى سبيل وضع قواعد قويمة للسلام العالمى وتجنيب العالم فى المستقبل تدميراً شاملا نتيجة استعمال الأسلحة الرهيبة فى أى لحظة تبعا لاصطدام أطماع الدول الغربية ونرى هذا التدخل الذى يصادف قبولا من المواطنين اليوم والذى يلمسه الناس فى مختلف الميادين يبرز فى حياة الأفراد والأسر والجماعات وليس فى الميدان القومى فقط بل فى الميدان الدولى كذلك وفى النواحى السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية ، والمقترحات الخاصة بالإصلاح وبالتوجيه يعبر عنها المفكرون باستعمال مختلف أدوات الدعاية والأعلام ونرى نجاحا كبيراً للرأى العام فى ميدان تنظيم الدولة .

ولا يفوتنا أيضاً أن نذكر على سبيل الإشارة أن مؤتمرات لاهاى سنتى ١٨٩٩ ، و١٩٠٧ لتدعيم السلام وتفادى الحرب لم تك لمجرد رغبات الرأى العام وشدة تعلقه بأهداب السلام بل كذلك لما رأته الدول وشعر به ساستها من تزايد خطر الأسلحة الحديثة ونزول أنواع الأسلحة الميكانيكية والسامة كالغازات الخانقة ورصاص دمدم إلى الميدان ، وقد أدت قوة هذا الرأى واشتداد وعيه ونداء قيصر روسيا وهو صاحب المشروع وإصرار الحكومات على الاتجاه نحو سياسة سلام إلى قيام سلام لهاى فالى انشاء منظمة السلام المسماة عصبة الأمم فيما بعدم ثم حلول الأمم المتحدة محلها بعد الحرب العالمية الثانية .

ونرى الرأى العام الدولى هذا ينمو حاليا فى ميدان الجمعيات الدولية غير الحكومية التى تستشيرها الأمم المتحدة أو تأخذ بآرائها بين حين وآخر ومنها جمعيات نشأت بناء على توصية الأمم المتحدة ، ونذكر من أوائل الجمعيات الدولية غير الحكومة الهامة جمعية الصليب الأحمر وجمعية الهلال الأحمر وشتى جمعيات حماية الملكية الصناعية والتجارية والفنية وجمعيات حماية الطفولة وجمعيات اتحاد الطلبة .... الخ.

واستكمالا للشرح يحسن أن نأتى بكلمة عن أهمية الرأى العام فى كنف سياسة الحريين ثم سياسة تنظيم الحريات وتوجيهها وفيما يلى البيان :

تتضح أهمية الرأى العام فى الوضعين السياسيين المذكورين فى الحياة الحرة الطليقة التى تقف الدولة فيها موقفاً سلبيا إلا فى مهمتها كحارس وبوليس مدافع عن الحقوق وكحامى قوى الوطن بالجيش والقاضى للفصل فى المنازعات بين الناس لرد الحقوق إلى أربابها ، وتفنى الدولة وتتفانى للفرد وتأييد السياسة الفردية ، وفى الحياة القائمة على تنظيم حياة الناس بواسطة الدولة والتدخل الاقتصادى والاجتماعى والسياسى والتخطيط والتوجيه

وهذا مايسمى بتنظيم الحريات لصالح الفرد والجماعة ويفنى الفرد ويتفانى فى خدمة الدولة التى توجهه لصالح المجموع كما هى الحال اليوم فى شتى النظم السياسية القائمة .

وفى الحياة السياسية الاولى يسأل الرأى العام باستمرار بواسطة الانتخاب من الشعب أى الرأى العام الممثل فيه ، ويختار قادته ومن يرى فيه الكفاية ومن يضع فيه ثقته ليمثله فى البرلمان وليصبح عضواً فى الحكومة ، وتنشط الأحزاب السياسية ورجال السياسة وسائر المشتغلين بالشئون العامة وهم يعملون على صقل الرأى العام بواسطة الدعاية السياسية ليجذب إلى صفوفهم وفق برامج الأحزاب السياسية أصوات الناخبين الذين يتفقون مع اتجاهاتهم السياسية والاجتماعية وأهدافهم والتمشى مع أغراضهم الاقتصادية والتجارية والفنية ومشروعاتهم ومقترحاتهم .

ولهذا أثره فى تكوين فكرة اجتماعية معينة ، ويمكننا أن نخلص من هذا الشرح بأن الرأى العام فى هذا الوضع شعور يسيطر على الجماهير فى أمر من الأمور يصحبه إحساس من الضمير بأن هناك رابطة معنوية قوية تربط الجماعة التى تحس هذا الإحساس ، وينجم عن ذلك تعبيرها فى اتجاه معين هو هدفها المترتب على تبلور الفكرة أومثل عليا فى ذهن الفرد لا كفرد فحسب ولكن كخلية عاملة فى المجموع .

وفى الحياة السياسية الثانية ، يوجه الرأى العام تيار تسيره الدولة لصالح برامجها المختلفة وقد أصبحت تتدخل فى كل صغيرة وكبيرة لصالح الأفراد والجماعات لإنقاذ الشعب من ورطته وأزماته وتوفير العمل والغذاء للمواطن ومكافحة البطالة وبناء صرح التأمينات الاجتماعية لليد العاملة وتوفير العدالة الاجتماعية ، كما أنها ترسم الخطط لزيادة تثمير موارد البلاد ونشاط صناعتها وتجارتها الخارجية وتراقب الأسواق والأسعار وتسهر على توزيع الحاجات حتى لاتسنح الفرص للصائدين فى الماء العكر برفع أسعار المنتجات وخاصة الحاجات التى لاغنى للمستهلك عنها عن طريق السوق السوداء ، ويتعدى التخطيط إلى السياسة الخارجية فهى لم تعد ارتجالا بل ترسم فى ضوء الأحداث العالمية ونشاط الأمم المتحدة اليوم لتأمين السلام العالمى وتجنب المنازعات المسلحة والابتعاد ما أمكن عن التكتلات العسكرية والحرب الباردة وتوفير التعايش السلمى للشعوب على اختلاف ألوانها بلا اعتبار لتباين المذاهب ، ومن شأن هذه السياسة أن يتأثر الرأى العام فيها باتجاهاتها وبهذه الحريات المنظمة الموجهة وهى طابع عالم اليوم .

والفرق بين الرأى العام والرأى الخاص المبعثر لبضعة أفراد هو أن الأول تركيز لسياسة تعبيرية جماعية ، أما الثانى فهو تعبيرات متفرقة يتعذر تركيزها وجعلها جماعية وهى لا تمثل بحال تياراً مجتمعاً من الجماعة .

ولتقريب المسألة إلى الذهن نرى أن الفرد كفرد يتعشق فرديته ، وقد ينتقد سياسة حزبه انتقاداً مراً وحراً وقد يشعر فى ضميره بسخط وهو غير واثق من تصرفات بعض قادته ، ولكنه إذا سئل كخلية فى الجماعة التى يتنمى إليها فى استفتاء لصالح حزبه فإنه سرعان مايشترك مع الرأى العام فى إعطاء صوته لحزبه لا للحزب المعارض ، ولايستدل على الرأى العام فى أنه يمثل قوة وأن رأى كل عضو فيه يستند إلى الرأى الآخر فقط بل أيضاً فيما ينجم عن هذا التيار من أثر فى تغيير الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية وفى قلب أوضاع التصويت والأغلبية ، والدعاية أو الدعوة سلاح قوى يؤثر فى هذا التيار وهى تكسب لمصلحتها أصواتا سرعان ماتتجمع لتكون قوة هى الرأى العام الذى يتحكم فى الوضع السياسى والحكومة ونظام الحكم .

الفصل الرابع

الشائعات فى الرأى العام والدعاية

ان الشائعات ويعنى بها ما ينتشر أوينشر فى الناس من أخبار وروايات قد تكون صحيحة وغالبا مايكون مبالغا فيها أوبعيدة عن الصحة ولغرض التأثير فى الرأى العام أوقيادته بطريقة غير سليمة أوصرفه عن فكرة أواتجاه معين ــ ان هذه الشائعات كثيراً ما تهز الرأى العام وتبلبله وتغير اتجاه تياره مما يحدو إلى دراسته للتعرف إلى مدى حساسية الرأى العام هذا .

وان فى انتشار الشائعات وتأثيرها على الناس ورد فعلها مايرينا بوضوح قوة الرأى العام ، فالخبر ينتقل من فم إلى فم فالى عقل ثم إلى عقل وهكذا ... وسرعان مايتحول من مجرد قصة يرددها بضعة أفراد فى نطاق حياتهم الخاصة إلى قوة تكون رأيا عاما جارفا له خطره وتتهدد وتتوعد . وفى هذه الحالة يحرك الرأى العام القوى الحاكمة للمبادرة بتلافى خطر الشائعة أولمجابهتها وهذا ما يبين خطر الشائعات المغرضة والكاذبة التى تهدد كيان الحكم والمجتمع ، وتحاول الدولة فرض العقوبات على مصطنعيها وتطاردهم ويصبح موقفها منهم موقف رجال المطافىء من حريق يسرى كسريان نار الشرر المتطاير فى الهشيم .

ونشطت فيما بين الحربين العالميتين المؤتمرات الخاصة بالقانون الجنائى الدولى وبحثت إمكان إدخال نصوص فى القانون الجنائى مؤسسة على نصوص فى الدساتير القومية ومعاهدات على معاملة المثل فى هذه الحالة ، وهى ترمى إلى معاقبة من ينشر أخباراً تحض على كراهية الشعوب بعضها لبعض وعلى التحريض على الحرب أوعلى مجرد شائعات مغرضة عن اشتعال نيران الحرب كذباً ، وقد عنى الدستور الإسبانى للدولة الإسبانية الاشتراكية قبل انتصار فرانكو وانتهاء الحكومة الاشتراكية هناك سنة ١٩٣٩ بهذا الشأن ونص على عقوبات خاصة بالتحريض على الحرب ونشر الإشاعات الكاذبة عنها .

ويمكننا أن نفرق بين الشائعات التى تتناول المسائل العامة الخطيرة عن غيرها ، وقد دلت التحريات فى البلدان المتمدينة على أن محاولة انتقال الشائعات الكاذبة كثيرة وخطيرة فى هذا الميدان تبعاً لاستمرار اتصال الدولة بالجمهور عن طريق الصحافة والإذاعة

والنشرات واستحالة محاولة حصر المسئولية . وسرعان ما يتضح كذبها تبعاً لعجز مصادرها غير أنه لا يمكن فى أحوال كثيرة التعرف إلى ما قد يكون لها من أثر سيء فى ميدان الأخبار التى تتناول المسائل التفصيلية وسمعة الحكام وتصرفاتهم وحياتهم الشخصية ومنازعاتهم ، والشائعات الكاذبة قد تكون فى نشر خبر يؤثر فى السلام والحرب وينذر باشتعال نيران الحرب كما رأينا فى برقية « أيمس ؟ Eims » التى قدمها بسمارك إلى ملك بروسيا فى المدينة بالاسم المذكور التى كان يتعاطى فيها الملك المياه المعدنية للاستشفاء وأدخل فى روعه أن هذه البرقية الموجهة من امبراطور الفرنسيين نابوليون الثالث إلى الملك فيها مساس — وقد حرفها — بسيادة بروسيا وبسلطانها ونفوذها الدولى وذلك بمناسبة اختلاف الفرنسيين على ترشيح ملك على عرش مدريد واصرار فرنسا على ألا يرشح أحد من بيت الهوهنزلرن المالك فى بروسيا على عرش أسبانيا ، كما قد يكون فى مجرد نشر بعض الهمسات عن الحياة الخاصة لرجل من رجال السياسة تتناول أسرته أو تخدش سمعته السياسية أو المالية مما يؤثر فى حياته العامة ، وقد تكون فى استمرار نشر فضائح فيها شيء من المبالغة كما فى قضية ستافيسكى سنة ١٩٣٤ واتصال هذا النصاب العالمى — الذى اختلس من بنوك التسليف والرهون ما يزيد على ما يعادل ١٠٠ مليون جنيه — بالحزب السياسى الغالب فى فرنسا وهو الحزب الراديكالى الاشتراكى وتمويله فى حملته الانتخابية وصلته برئيس الوزراء الذى يمثل هذا الحزب فى ذلك الوقت

ويجب أن نلاحظ أنه كلما تعطش الجمهور إلى الأخبار تبعاً لحبسها عنه كلما راجت سوق الشائعات وأمكن أن تعمل عملها الضار فى الأذهان والنفوس ويشاهد فى زمن الحرب والثورات انتشار الشائعات ، وخطرها و ضررها وتصديق الجماهير لها ومبالغتها بنقلها من فرد إلى آخر واعتماد الناس عليها وهم بين اليأس والرجاء والتشاؤم والتفاؤل .

كما أن الشائعات قد تأتى نتيجة رد فعل للعمل على اخفاء الحقيقة ، مثال ذلك ما نشرته القيادة الانجليزية فى أوائل الحرب العالمية الثانية يوماً ما واتخذ مثلا فى وجوب عدم المبالغة فى المغالطة فى أن غزو الطائرات الألمانية لجنوب انجلترا تسبب عنه فى غارة من الغارات قتل كتكوت فقط دون أى اضرار أخرى ، كما بالغت الدعاية الإيطالية فى حملتها من ليبيا على مصر أثناء الحرب العالمية الثانية عن خسائر الانجليز المتقهقرين أمام الحملة وفى أن الجيوش الإيطالية فى دخولها بقبق وهى قرية فقيرة ضحلة كالواحة وأهلها من الأعراب سرعان ما أعادت سير قطارات الترام وفتحت دار الأوبرا!

ويجب التفرقة بين الشائعات والدعاية السياسية ، فالأولى أخبار مبالغ فيها أو غير

حقيقية ومتنقلة وبنت ساعتها ولكنها قد تستخدم بانتظام كدعاية . أما الدعاية السياسية فهى تدخل منظم يقوم على أسس فنية وتهدف لأغراض معينة ؛ والدعاية السياسية تستخدم لتطبع فى الرأى العام فكرة معينة توجهها على أن تعمل لتحقيق ما يأتى : —

١ — تكوين رأى عام وذلك بتأثيرها فى الناس وجمع شمل مختلف الآراء وقد أنصتت الجماهير للفكرة والتأمت فى قوى جماعية ، وتحاول الدعاية بهذه الطريقة أن تكسب أغلبية شعبية أو على الأقل أقلية قوية تستخدمها لصالحها حتى يمكنها أن تهز الناس للاستيقاظ من سباتهم والقيام بعمل إيجابى أو الوقوف فى موقف سلبى بصدد أمر معين وسرعان ما يصحب نشاطها طرح برامجها .

٢ — الضرب على أوتار نغمات معينة تميل إليها الشعوب ومحاولة التأثير فى الجماهير عن طريق تنسيقه السياسى مع محاولة السير وفق آماله ؛ والدعاية ترتكز على بحث سابق يوافق هوى الناس وعمل من شأنه تركيز ميولهم فى بوتقة لاستخراج أثمن ما فيها بعد تفاعلها كيميائيا ، وهذا ما سارت فى سبيله ألمانيا النازية فى عهد هتلر وهذه نفس السبيل التى سارت فيها من قبل دعايات رجال الثورة الفرنسية ومحاولتهم مثلا إعلان عبادة العقل كدعاية ضد رجال الدين والارستقراطيين والرجعيين وهم خطر على الثورة . وهذه نفس الفكرة التى تسلطت على رجال عهد الإرهاب فى الثورة الفرنسية وذهبوا نتيجتها إلى نصب المقصلات فى طول البلاد وعرضها لقطع رؤوس كل من يشتبه فى عمله ضد الثورة وأنه من دعاة التردد والهزيمة مما أطاح برؤوسهم فى النهاية لسوء فعالهم .

٣ — تحليل أهداف الدعاية مع ايضاحها ورسم خطط كل ناحية منها فهناك خطط تقوية الحزب السياسى وهناك أيضاً الدعاية المرسومة لبرنامج حكومى معين وهكذا وتختلف وسائل الدعاية والأعلام باختلاف كل حالة كما سنبين فيما بعد ، ويحسن أن تستخدم كل منها فى الحالة الصالحة لها فالخطابة مثلا أقوى أدوات الدعاية الانتخابية والدعاية بالذات أهم وسائل الحكومة لتأييد برامجها ، والسينما والتليفزيون والنشرات من وسائل التأثير الشعبى ولنشأته نشأة معينة وتتضح أهمية الدعاية فى الحياة السياسية القائمة على تنظيم الحريات وعلى التوجيه الاجتماعى والاقتصادى وكذلك فى النظم القائمة على اختفاء الأحزاب السياسية وتوجيه الدولة كل شيء فى حياة الأفراد .

ونرى أيضاً دعاية قوية فى البلدان الحرة ذات النظام الحزبى برسم الطريق للشعب مع مطالبته بالحد من تصرفاته فى اتجاه معين مثال ذلك الدعاية للبضائع الوطنية ولوجوب الحد من استهلاك السلع الأجنبية وتشجيع الانتاج الأهلى فى انجلترا المشهورة بحريتها الواسعة النطاق يوم أن اشتدت لديها الأزمة الاقتصادية وخرجت عن عيار الذهب

سنة ١٩٣١ ، وبدات تسير فى سلسلة اقتصادية موجهة وتعمل على تشجيع الانتاج الأهلى وزيادة التصدير ، ونرى مثل هذه الحالة فى نفس الظروف فى فرنسا ، فقامت دعاية واسعة النطاق للبضائع الفرنسية نتيجة بدء تجربة اقتصادية قوية موجهة لصالح الانتاج الفرنسى حينما اشتد الخناق عليها اقتصادياً تبعاً لتمسكها بعيار الذهب رغم خروج انكلترا عنه منذ سنة ١٩٣١ وما بعد ذلك ، وقد بلغت الدعاية أوجها هناك سنة ١٩٣٤ . وعند بدء تجارب الوزارات ومنها وزارة لافال لعلاج الأزمة الاقتصادية .

ونرى دعاية واسعة النطاق فى ألمانيا النازية لصالح الفكرة العنصرية وتشجيع العمل باستمرار فى سبيل بناء امبراطورية ألمانية صميمة على أسس آرية ، ومن العبارات المشهورة فى حض الجماهير على الاستعداد للحرب فى سبيل الامبراطورية المزعومة فى ذلك الوقت عبارة « المدفع قبل الزبدة » وذلك لانقاذ الوطن من الأخطار المحدقة به فى ظل الصليب المعقوف وجمع المتعصبين للنازية ومن ورائهم الشعب للسير نحو شرق أوربا وعبور ما وراء البحار فى سبيل إقامة النظام الجديد على أساس فلسفة « السير نحو الشرق » للمعسكر الاستعمارى الألمانى منذ نشأة الريخ الأول .

وفى نظام الحريات الموجهة أو التخطيط تتضاعف مهام الدولة فى الدعاية فهى تحتاج إلى خطط أيضاً بعيدة المدى قائمة على التخطيط للدعاية فيما يختص بالتأثير على الشعب أى على الرأى العام فى قبول سياسة التقشف والاستغناء عن سلعة بأخرى أو إحلال أخرى محلها كما نرى فى الصناعات الألمانية قبيل الحرب العالمية الثانية التى يطلق عليها صناعات البديل على أسس كيمائية هى « ايرساتز » « Ersatz » كاستخراج البترول من الفحم واللبن والصوف والخبز من الأخشاب ولب الشجر ، أوسياسة الاستجابة إلى المثل العليا للدولة وفكرة الاتحاد أو الوحدة عن طيب خاطر .

وكما يكون هناك تخطيط فى الانتاج وفى رفع المستوى المادى والمعنوى للشعب يجب أن يكون هناك أيضاً تخطيط فى توجيه الرأى العام وفى الدعاية بأنواعها ، وهناك كلمة أخرى يجب ألا تفوتنا وهى أن الدعاية إذا كانت تفعل حتى فى حالة المبالغة فيها ولكن فى ظل الحقيقة وفى ظل صالح الشعب فعلها فهى تصبح خطيرة وضارة إذا قامت أسسها على المغالطات والأكاذيب ، وخاصة إذا وصلت إلى حد نشر الذعر كذباً بالتحريض على الحرب والكراهية بين الناس وبين الشعوب لذلك عملت القوانين الجنائية فى العديد من البلدان وكذلك لجان الأعداد لها ومؤتمراتها كماسبق ان ذكرنا على مكافحة الأكاذيب والدعايات الخطيرة التى تهدد سلامة الشعب والدولة ، واهتمت عدة دساتير بالضرب على أيدى الذين ينفثون سموم الكراهية بين الناس ويحضون على الحرب أو الذين يبثون شائعات تؤدى إلى الصدام المسلح واشتعال نيران القتال بين الدول .

الفصل الخامس

الرأى العام والدعاية وتطورها

الرأى العام مرآة يتضح فى ظلها اتجاه الجماهير وهو يتأثر بالدعاية التى تلونه حسب نشاط وأغراض أصحاب الدعاية ، والدعاية لها أدواتها المختلفة التى تدخل فى إطار الأعلام وتستعمل فى أغراض متباينة أيضاً وهناك الخطابة والكتابة والتمثيل والسينما والإذاعة والنشر وما يشبه هذا من وسائل تستخدم للتأثير فى الرأى العام والجماهير .

كما أن الدعاية تستخدم فى الميادين المختلفة فى الصناعة والتجارة والانتخابات وسائر ميادين السياسة ولصالح الحكومة وكذلك لصالح المعارضة ، والدعاية ليست بنت اليوم فالتاريخ حافل بالأمثلة .

وفيما يلى خلاصة عن الدعاية وأدواتها على مر العصور :

لقد شوهدت الدعاية للدولة وللعاهل والفرعون والقيصر والالهة والكهنة منذ العصور الغابرة واستند الأباطرة وتعلقت المدنيات على اختلافها بالدعاية كقوة لتدعيمها على مر العصور ويتضح ذلك فيما شيد من تماثيل وهياكل ومعابد ، ولا تزال تماثيل الفراعنة المصريين المبعثرة فى أنحاء الوجه القبلى والبحرى تلقى فى نفوسنا الروعة والجلال ، وتعلمنا الكثير عن أهمية الدعاية وأثرها فى الناس .

كما علمتنا هذه الدعاية منذ القدم وجوب أن تقوم على الحق والواجب ، فقد انتقد اتجاه الفرعون إلى مسح اسم سلفه وكتابة اسمه على الآثار لتدل عليه .

ولا تزال تماثيل القياصرة فى روما وسائر أنحاء شبه الجزيرة وآثار المعابد الدينية والهياكل خير دعاية للمدنية القديمة وبرهان ساطع على عظمتها ومهارة شعوبها ولا تزال الاجورا Agora فى اليونان القديمة ، والفورم Forum فى روما القديمة ، وهما الجهتان اللتان كان يجتمع فيهما الشعب وساحتا بحث القوانين والتصويت عليها فى ديمقراطية شعبية مباشرة أو شبه مباشرة من أقوى الأدلة وأدوات الدعاية على قيام الديمقراطية والتصويت الشعبى واشتراك المواطنين فى التقنين والحكم ، وماخلف الرومان مثلا فى مسرح نيم Nîmes فى فرنسا وفى بعلبك فى لبنان وسائر المسارح فى العالم

القديم تدل هذه الآثار على أهمية الدعاية القديمة حيث كان الشعب يجتمع فيها للتسلية والتشاور وتبادل الرأى حين اللزوم .

وراجت الدعاية فى العصور الوسطى فى الأسواق فى أوربا ، وكما كانت سوق عكاظ عند العرب فى الجاهلية خير دعاية للشعر والأدب وللتشاور فى مصالح العرب فإن الأسواق فى العصور الوسطى فى أوربا كانت خير دعاية للإعلان عن التجارة والاتصال بين الشعوب ، وكان المداحون والزجالون خير دعاة لآراء الشعب ولأحاسيس الشعب وكان تبادل الفراء والعقود والحرائر والنفائس يصحب اختلاط أهل الشمال فى أوربا بالجنوب وتعارف ساكن البندقية مثلا على ساكن همبورج أو لندن ، كما أن المداحين والزجالين والرواة والشعراء نقلوا عن عرب الأندلس رقة أحاسيسهم ورفيع غزلهم ومديحهم فى عذوبة المرأة وجمالها الى أوروبا العصور الوسطى وذلك فى رحلاتهم عبر البرانس ليعلموا بلاط الأمراء والفرسان والنبلاء وغيرهم كيفية معاملة المرأة باحترام وقد كانت فى نظرهم تكاد تكون عديمة القيمة إلا للمتعة والانجاب ، وليظهروا رقتها ومفاتنها مما أدخل تحولا كبيراً فى الأدب الغربى وقصصه ومسرحياته منذ عصر الانبعاث .

وأدرك الإسلام منذ فجره قوة الدعاية وعرفت باسم الدعوة الإسلامية ، ونتيجة هذه الدعاية أقبل الناس على الدين أفواجاً وكانت قوة الدعاية الإسلامية فى الاقناع والسعى لدى الأمم المجاورة لاعتناق الإسلام . وكانت الدعاية فيما ورد من حكم ومواعظ فى أحاديث وفى أقوال الخلفاء الراشدين ورجال السياسة والدين من المسلمين فى فجره وأقوى قوة صادقة فى الدعاية الإسلامية والحضارة العربية هو الكتاب الكريم الذى نزل بلغة الضاد ليكون حافظاً لها ، ولم يكن الفتح الغاية فى الإسلام بل كان بين حين وآخر وسيلة ، وقوة الدعاية الإسلامية هى فى أنه دين سمح كريم أعطى الفرصة للأمم المجاورة التى تئن من ظلم الحكام واستبدادهم وسياستهم الفاسدة فى أن يدخلوا فى الإسلام أفواجاً ، وسماحة أحكام الدين وديمقراطية الدولة الإسلامية كانتا من أهم عوامل تقويض الممالك المستبدة التى عاشرت فجر الإسلام ، وسرعان ما تقبلت الشعوب المجاورة للعرب تعاليم الذين قدموا إليها لا كغزاة طغاة بل أصدقاء منقذين وعرفتهم على حقيقتهم ، وبدأت الدعوة فى الحجاز وبين قريش وفى مكة والمدينة ، ثم امتدت إلى الشام ومصر وبلاد فارس والعراق والحبشة ، وانتشرت فى مشارق الأرض ومغاربها .

وما زلنا على القول بأنه ليس هناك أقوى فى الدعوة إلى الإسلام من القرآن الكريم ، وتاريخ الحضارة الإسلامية يذكرنا بقوة الدعوة فى خطاب الرسول إلى المقوقس عظيم القبط لاعتناق الإسلام ، وفى رسائله إلى حكام البلدان المتاخمة للعرب كهرقل ملك الروم والنجاشى ملك الحبشة وغيرها . وحضارة الإسلام تذكرنا أيضاً أن قوة الدعاية هى فى

بساطة تعاليم الإسلام وديمقراطيته وتواضع وقناعة المسئولين عنه فى فجره ، وفى حياة التقشف التى عاشها عمر بن الخطاب وفى انتزاعه حق الضعيف من القوى فى قصة ملك الغساسنه مثلا وقد وطىء إزاره عربى فقير أثناء الطواف بالكعبة فضربه وجدع أنفه ، فشكى إلى عمر بن الخطاب الذى طلب من الأمير أن يفتدى نتيجة سوء فعلته فرفض وقال كيف أفعل هذا وأنا أمير وهو سوقة فقال له الإسلام سوى بين الملوك والسوقة وفر أمير الغساسنة إلى بلاد الروم ، وخطب الخلفاء الراشدين علاوة على أنها تحوى أسمى عبارات الخلق السياسى المستقيم فهى خير قوة للدعوة الإسلامية ، ونذكر قول ثانى الخلفاء الراشدين وهو عمر بن الخطاب فى أول خطبة خطبها بعد أن افضت إليه الخلافة « يا ايها الناس والله ما فيكم أحد أقوى عندى من الضعيف حتى آخذ الحق له ولا أضعف عندى من القوى حتى آخذ الحق منه » .

ونذكر فى قوة الدعاية تبادل علاقات الود وحسن الجوار بين هارون الرشيد وشارلمان وقد تبادلا الهدايا ، وفى عقد أواصر المودة بين سليمان القانونى الخليفة العثمانى وفرنسوا الأول ملك فرنسا ، وتمخضت الدعاية عن معاهدة لافوريه **La Forêt** فى مطلع القرن السادس عشر سنة **١٥٣٤** لتسهيل تبادل التجارة والمنافع بين بلدى العاهلين .

ونذكر قوة الدعوة عند الفاطميين وقد بلغت مصر أوج مجدها وعظمتها فى عصرهم واتخذ الفاطميون من الدين ومن المذهب الشيعى أدلة للدعاية بالحسنى والاقناع لا بسفك الدماء ، وكانت المسالمة مع اجتذاب الأنصار والأغداق عليهم سياستهم فى دخولهم مصر وإقامة دولة الفاطميين فيها ، وهكذا كانت الدعاية لكسب الضمائر والعقائد دون إراقة قطرة دم واحدة ، وفى الأزهر الذى شادوه وحلقات الدراسة والدعوة للمذهب فى أروقته وفى احتفال رمضان والأعياد وجبر الخليج وغير ذلك من أحياء ليالى ذكرى المناسبات الدينية والدنيوية ما يدل على ثاقب فكر الخلفاء الفاطميين فى اتخاذ الدعاية خير أداة لتوطيد ملكهم .

ولا غرو فى ذلك فالإسلام قوة للسلام والاتحاد بين الشعوب وإذا أحكمت الشعوب العربية استخدامه كان خير دعاية وأقوى حصن لصد هجمات الأعداء ولتوطيد التحاب والوحدة بين العرب والمسلمين ، ومصالحهم مشتركة وأهدافهم متماثلة وغرضهم واحد وآمالهم واحدة ، وبذلت الدولة الفاطمية — بعد أن مهدت الدعوة لدخولها مصر واستقرت لها الأمور — قصارى الجهد لنشر الفقه الإسلامى وروج لذلك المعز لدين الله الفاطمى وابنه بين الناس خاصتهم وعامتهم لإنشاء فرق من الرأى العام تلتف حول خلافة الفاطميين . كما أجرت الدولة الفاطمية فى هذا السبيل الأرزاق بانتظام على من استمع إليها وتوجت عملها بإقامة الجامع الأزهرى العظيم كما سبق أن ذكرنا فكانت حصناً

للدين والخطوة الأولى للجامعة الإسلامية ، وتعلم فيه المسلمون الذين كانوا يفدون من كل حدب وصوب أصول التعاطف فضلا عن تعاليم الدين ، وهى ليست فقط من أقوى أسلحة الدعاية الدينية الإسلامية والتفاف العرب حول لواء واحد ، ولتوحيد العالم الإسلامى ، بل هى أيضاً من أقوى أسلحة الدعاية السياسية ، ولم يترك خلفاء الدولة الفاطمية بابا من أبواب الدعاية لسلطانهم دون طرقه ، فكانوا يجالسون ويجلسون فى قصر الخلافة فقهاء لقراءة علوم أهل البيت على الوافدين لأنهم يعلمون تماماً أنه بانتشار مذهبهم تتأيد الدولة لارتباط السياسة بالدين ، ولا ننسى أيضاً أنهم الذين أدخلوا شتى الاحتفالات بأيام الدين والأعياد كما سبق أن ذكرنا وجعلوا منهـا مباهج لإدخال السرور على المسلمين وإظهار الدولة فى حلل زاهية . كما لا ننسى أن نذكر أن الفاطميين هم الذين دونوا الدواوين بالعربية فى مصر وكانت تكتب بالقبطية ، فكانت أكبر سند لانتشار اللغة العربية ولتكاتف العالم العربى والإسلامى .

والتاريخ والواقع قديما وحديثاً حافلان بعلامات الدعاية السياسية مثال ذلك صليب مالطة وصليب اللورين وزنبقة الملكية فى فرنسا وهلال الدولة العثمانية والمطرقة والسندان للشيوعيين والنسر الامبراطورى وشجرات الحرية للثورات والعلم الأحمر للشيوعيين والعلم الأسود للأفكار « الفوضوية » والعلامات والرموز للماسونية والصليب المعقوف للنازية والنسر الأزرق لبرنامج الانعاش الاقتصادى والتنظيم فى الولايات المتحدة الأمريكية الذى اختاره روزفلت والنسر الذى يستخدم كعلامة للجمهورية العربية المتحدة ، والأعلام الشتى للدول والأحزاب والهيئات وعلامة الجمجمة مع عظمتين متعارضتين للدلالة على سفينة القرصنة ، ونذكر أيضاً شتى علامات الدعاية بعد الثورة عندنا كاللون الأحمر والأسود مع النسر فى شعار هيئة التحرير ، وعبارات النظام والاتحاد والعمل ، والاتحاد القومى ، وشتى الدعايات للنظام التعاونى ، والاتحاد الاشتراكى العربى ودعايات السياسة الخارجية مثل عدم الانحياز والحياد الإيجابى وشتى عبارات الدعاية للنهضة الاشتراكية كعبارة الزحف المقدس .. وهكذا .

والعبارات الرنانة لا تبلى مع مرور الزمن وأساسها الكلام أو الخطابة ولها قوتها فى اجتذاب الجماهير ولها سحرها فى استمالة النفوس وفى التفاف الرأى العام حولها ثم سير الناس كالتيار الجارف فى سبيل تحقيق الفكرة إلى حد أنها قد تدك العروش وتوجه مصائر البلاد كما تبنى مثلا جديدة وتقيم صروحها على أسس لا تتزحزح تصير مثلا على مر التاريخ كالعبارة التى وردت فى أول خطبة لأبى بكر الصديق بعد مبايعته بالخلافة وهى : « أيها الناس وليت عليكم ولست بخير منكم فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى —

الضعيف منكم قوى عندى حتى أرد له حقه إن شاء الله والقوى منكم ضعيف عندى، حتى آخذ الحق منه » .

وهناك عبارات من نوع آخر لحث الجنود على مواصلة القتال وإدخال الطمأنينة على نفوسهم وهم فى بلاد غريبة ومطالبتهم بأن يظهروا بما يليق بهم وأن يتسربلوا بحلة الشجاعة والجرأة كخطبة طارق بن زياد فى حث جنوده بعد حرق مراكبه على غزو الأندلس « العدو أمامكم والبحر وراءكم وليس لكم إلا القتال والصبر » وهو يقصد بذلك أن يضاعفوا فى التضحية ليصلوا إلى غرضهم وقد كان لهم هذا ، فقد شادوا حضارة عريقة فى الأندلس دامت أكثر من سبعة قرون ، وكقول بونابرت القنصل لجيشه على حد قول البعض بعد فتح مصر وهو بجوار الأهرام « أن أربعين قرناً تطل عليكم من قمة هذه الأهرامات » وتعنى هذه العبارة أن التضحية التى قام بها جيش بونابرت جديرة بأن تتم إذ أن الفتح والاستيلاء على بلاد عريقة فى مدنيتها غنية بتربتها مما يستحق الإقدام عليه وبذل أقصى التضحيات فى سبيله كما أن جنوده عليهم فى هذه الحالة أن يتصرفوا بما يليق بجيش الثورة إزاء مدنية عريقة ، ونذكر أيضاً عبارة تشرشل فى خطبته أثناء الحرب العالمية الثانية ليستحث الهمم ويطالبها بعمل المستحيل لكسب الحرب التى كانت رحاها تدور فى غير مصلحة بلاده « ليس لنا ما نقدمه لكم اليوم غير العرق والدموع » ثم العلامة التى كان يظهر بها أمام الجمهور ليستدر عطف الرأى العام إلى حد بعث الحماس فى النفوس وهى علامة الحرف الأول من كلمة النصر V بالانكليزية بأصبعيه مرفوعتين إلى أعلى .

ومن العبارات المشهورة أيضاً التى يتخذها الكتاب كدعاية وكدليل على أهمية البترول العبارة التى وجهها كليمنصو إلى ولسن فى السنة الأخيرة للحرب العالمية الأولى وهى « ان كل قطرة من البترول تعادل قطرة من الدم » فهو بهذه العبارة فى برقيته يستنجد بها الولايات المتحدة أن تنشط فى مد جيوش الحلفاء ومنها جيش الولايات المتحدة فى أن ترسل البترول وقد شح المخزون منه فى فرنسا ، وذلك على جناح السرعة لأغراض الطيران والتموين واستمرار المعركة ، وإلا تتعرض هذه الجيوش للهزيمة وتخسر الحلفاء الحرب ، وهو يطلب فيها من ولسن بطريقة غير مباشرة أن يلزم شركات البترول فى الولايات المتحدة الأمريكية أن تمد جيوش الحلفاء فى فرنسا بالبترول والا تتملص خوفاً من حرب الغواصات من مسئوليتها بالاتجاه نحو المحيط الهادى على أن يكون ذلك على جناح السرعة لفائدة المعارك الفاصلة وضمان كسب الحرب ضد ألمانيا القيصرية .

وهناك كثير من الأناشيد أيضاً التى اتخذت قالب الدعاية إما لأنها كانت استجابة لروح العصر وعلى ذلك انتشرت فى أنحاء العالم ، وإما لأنها وصفت ناحية من النواحى

الإنسانية التى تعبر عن ضمير وقلب الرجل العادى ، ونذكر من هذه الأناشيد المارسيلييز وهو السلام الوطنى للجمهورية الفرنسية منذ الثورة ، واشتهر فيما بعد لا فى فرنسا فحسب بل فى مختلف أنحاء العالم الحر ، وتبرز فى نغماته صيحات الحرية للشعب ، كما كانت مقطوعات شوبان فى تعبيره عن أرض بولونيا المسماة « لا بولونيز » تعبر فى حماس عن روح الشعب البولندى وتعطش المواطن البولنــدى لتحرير وطنه واتخذت كدعاية للوطنية ، كما كانت موسيقى شتراوس وما بها من بهجة ومن نغمات شديدة الحركة والتذبذب وانطلاق وتعبير عن النفس على سجيتها تمثل روح ثورات الشعب وأهمية السواد والأيدى العاملة فى منتصف القرن الماضى وهم يطالبون بالدستور وبحق الانتخاب المباشر دون التقيد بالنصاب المالى .

وإذا انتقلنا من هذا الجو إلى جو آخر فى تعبير بعض الأغانى والموسيقى عن روح الشعب وعن روح الرجل العادى وشعور المرأة نرى هذا فى بعض المقطوعات الموسيقية المشهورة والأغانى الشعبية التى ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى مثال ذلك القطعة الموسيقية المشهورة المسماة « لاجافا » **La Java** وهى لنوع من الرقص الشعبى العمالى فى فرنسا أصبحت بنغماتها وبعباراتها موسيقى ورقصاً شعبياً عالمياً وبالمثل الأغنية المسماة مون أوم **Mon homme** أى رجلى واتخذت هذه المقطوعة الشعبية صفة العالمية وحقق الذين ألفوها ولحنوها وغنوها أرباحاً لاحصر لها فى مختلف أنحاء العالم كحق التأليف والتلحين والغناء والآن نرى نفس الوضع فيما يختص باتجاه الرأى العام للشباب ولجيل المستقبل وما يخشاه من قلق واضطراب هو صدى عصر الأزمات ، والمشاهد فى أغانى الشباب — المعبرة عن روح العصر وفى رقصاته التى انتشرت فى بلدان الغرب وفى بلدان الكتلة الشرقية على السواء من تعبيرات ونبرات وحركات مبلبلة حزينة ثم قوية سريعة أشبه بالتشنجات ما ينبىء عما يقاسيه جيل اليوم وما يلفت النظر لعلاج مشكلاته .

وإلى جانب العبارات التى تتردد فى الخطابة وفى الاتصال بالجماهير وفى الأغانى هناك أخرى يسجلها التاريخ كناحية من نواحى التعبير الإنسانى أو لإبراز شعور الإنسان وذهبت مثلا رغم مرور السنين عليها وجاء بعضها فى مؤلفات وكتب المفكرين وجاء بعضها فى إعلان مبادىء إنسانية جديدة ، تلك الإنسانية التى تكافح على طول العصور فى سبيل التقدم والتحرر من قيود الرق ، ونذكر منها عبارات اتخذت شعاراً للدساتير « كالحرية والإخاء والمساواة » ونذكر منها أيضاً العبارة التى تعتز بها الدساتير الانجلوسكونية وهى « منزلى حصنى » **My home is my castle** » ونذكر منها المصطلح المشهور فى الدستور الانجليزى وهى « هابياز كورباز » Habeas Corpus وهى وجوب مثول الشخص ببدنه لكى يسأل أمام المحكمة أومثول المتهم أمام القاضى لسؤاله هوشخصياً ،

كما سبق أن ذكرنا وكذلك سائر مبادىء حقوق الإنسان كحرية الرأى وحق الامتلاك..الخ ونذكر بعض صور رسمها الكتاب مثل شكسبير كوصف الغيرة فى روايته بعنوان « عطيل » وفيها طبع الرجل الشرقى الأسمر بطابع الاندفاع السريع دمغه على مر الأيام بطابع الغيرة الشديدة ، وفى بيان لشكسبير أيضاً فى قصته بعنوان « تاجر البندقية » يصف فيه بخل اليهود وكيف أن المرابى اليهودى شيلوك صمم على أن يأخذ من مدينه رطلا من اللحم الحى لبدنه وفاء لدينه فى حالة التقصير وفى أعقاب ذلك سمى كل رجل شديد الغيرة « عطيل » وكل رجل بخيل « شيلوك » كما لم يغفل شكسبير فى قصصه وصف الغدر وفى قصته بالذات بعنوان « قيصر » وقتل بروتس له هناك العبارة المشهورة وهى « حتى أنت يابروتس » ويستعمل للتعبير عن غدر الأخ بأخيه . كما نذكر كيف أن قصص ألف ليلة وليلة بألوانها فى البذخ ودسائس الحريم وغدر المرأة وخداعها ومؤامرات النساء ووقوع الأمراء والوزراء فى حبائل الغدر والخداع والعطف على الفقير والكسب السريع والمارد ومصباح علاء الدين والمازق والخروج منه فى هذه القصص وغيرها خير معبر عن بذخ وترف العصر المغولى فى الإسلام ، ونذكر أيضاً تطور أنواع الدعاية فى التيارات السياسية والمذاهب وآراء الكتاب على اختلافهم منذ القدم وبعد منتصف القرن التاسع عشر مثال ذلك ما قاله اليونان القدماء فى ان الإنسان « كائن أوحيوان سياسى » أى أنه لا غنى له عن التعاون مع أخيه الإنسان .

وللعرب البيت المشهور فى هذا الصدد :

الناس للناس من بـدو وحاضرة   بعض لبعض وان لم يشعروا خدم

كما لم يغفل العرب ذم الغدر والدعوة ضده فى الأبيات الآتية وتعبر عن أن الطبع يغلب التطبع فى فتك ذئب رضع من شاة ثم افترسها بعد أن كبر ونما :

بقرت شويهتى وفجعت قلبى   وانت لشاتنا ولـد ربيب
غذيت بدرها وربيت فينـا   فمن انباك ان اباك ذئـب
إذا كان الطبـاع طباع سـوء   فلا أدب يفيـد ولا أديـب

ونذكر تفسير كارل ماركس للاشتراكية العلمية وما جاء فى عبارته عن الاستعمار يخاطب فيها العمال : « عليكم العمل على إلغاء استغلال الفرد للفرد وبذا يقضى على استغلال الشعب للشعب » ، وفى عبارة الثورة الروسية ، بدئها لتبث فى صفوف الجيش الروسى المقاتل فى الجبهة التفكك والتضعضع وهى موجهة إلى الجندى « عد إلى دارك لتستفيد من توزيع الأراضى على الفلاحين » وبذا يترك الجنود الجبهة وينتهى القتال وتلتئم الصفوف لتحقيق الثورة الشيوعية . وعبارة لينين فى أول الثورة الشيوعية فى روسيا فى سبيل عودة

الناس إلى الإنتاج وإلى الزراعة ووضع حد للهدم والتقتيل والتخريب وهى « السلام والأرض » ، وما جاء فى عبارة لأحد الاشتراكيين المتطرفين إلى حد الفوضوية وهو برودون Prudhon فسرت خطأ وهى « الامتلاك الفردى سرقة » ويقصد بذلك الامتلاك إذا حاد عن غرضه. ونذكر الروح الانجلوسكسونية والأمريكية فى تعبيرها عن نظام الحكم وعزيت إلى لنكولن وهى «حكومة الشعب وللشعب ومن الشعب » ، ونذكر عبارة لموسولينى عن الحرب بقوله « الهدنة كرنين العملة المزيفة » . ونذكر العبارة التى لا تزال ترن فى آذاننا وهى التى جاءت فى أعقاب الحرب العالمية الثانية بتصريح الأطلنطى على لسان روزفلت وتشرشل وهى « بناء عالم جديد أفضل لتجنيب الإنسانية ويلات الحروب فى المستقبل وحمايتها من خطر العوز والخوف والجهل والمرض » .

والدعاية أيضاً من أقوى أسلحة الحكم والسلطة ومن أهم وسائل الفوز السياسى فى الخارج ، وقد تأيدت وحدة إيطاليا السياسية فى القرن الماضى بفضل الخطب التى وضعها كافور Cavour ومزينى Mazzini داهيتا إيطاليا وغاريبالدى Garibaldi بطلها العسكرى ، وجهود وزير ملك سردينيا كافور وما عمله لكسب عطف الدوائر السياسية الخارجية وخاصة نابليون الثالث إلى صف الوحدة كما استخدم لهذا الغرض « الكونتس دى كاستيليون »De Castiglione الأيطالية الحسناء وابنة عم الوزير بايفادها إلى فرنسا لاستمالة الامبراطور نابليون الثالث لمساعدة بلادها ضد النير النمساوى .

وقد كانت أسلحة الدعاية السياسية ضد امبراطورية الوسط وخاصة ألمانيا القيصرية فى الحرب العالمية الأولى من أقوى الأسلحة لتأليب العالم عليها أثناء الحرب ولإدخال الولايات المتحدة الأمريكية فى صف الحلفاء وضدها سنة ١٩١٧ .

ومن أشد الأسلحة للدعاية التى قصمت ظهر ألمانيا وكانت ضدها إغراق — غواصاتها للباخرة التجارية لوزيتانيا فى ذلك الوقت وهى تحمل عدداً كبيراً من الأمريكيين وسبق الاشارة اليها ، كما كانت تصريحات الرئيس ولسن وشروطه الأربعة عشر من أقوى مثبطات الهمم فى ألمانيا القيصرية ومن أسباب فتور جيشها والقائه سلاحه ، وقيام الثورة الاشتراكية هناك وطلب عقد الهدنة سنة ١٩١٨ .

وقد قهرت الدعاية السياسية الخارجية فى كثير من الأحوال الدول الجبارة المستعمرة دون اراقة دماء غزيرة كالدفاع عن قضيتنا فى المحافل الدولية منذ قيام الحزب الوطنى فى أواخر القرن الماضى ، وكانت سبباً فى تغيير المعتمد البريطانى لجبروته واستبداده بمناسبة قضية دنشواى سنة ١٩٠٦ وهى من مآسى الاستعمار البريطانى ، وساعد هذا النوع من الدعاية فى زوال حكم العثمانيين والانجليز فى مصر والعمل على كسب قضايا الشعوب المحكومة بالامبراطورية العثمانية من فك أسارها .

وكان عدوان الاستعمار الانكليزى والفرنسى وصنيعتهما اسرائيل على قناة السويس فى أكتوبر سنة ١٩٥٦ ووقوف شعب مصر والعرب صفاً متراصاً ضد العدوان مع المقاومة الباسلة وما صحب العدوان من تعنت باطل ومحاولة إلباس الباطل ثوب الحق ، هذه العوامل كانت دعاية ضد الاستعمار وجلبت الرأى العام العالمى إلى صف شعب مصر وأنهت العدوان سريعاً بقرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة المعروفة .

ويمكن التساؤل ألم يكن التحاق الشاعر الانجليزى العبقرى لورد بيرون Lord Byron بصفوف المجاهدين فى اليونان لتحقيق استقلالها دعاية لبلاد سقراط وأرسطو وافلاطون وألم يكن مصرعه هناك دعاية واسعة فى سبيل قضية استقلال اليونان ، ولو أنه لم يمت فى ساحة القتال ؟

والدعاية سلاح لاشك فى خطره ، وقد تنفث سمومها ضد شعوب معينة كما نرى مثلا فى الدعاية الصهيونية ضد العرب فى الغرب ومحاولتهم أن يظهروا العرب بمظهر المعتدين فى حين أنهم هم المعتدون على العرب ويتطلب هذا عمل مضاد حاسم لكسر شوكتهم ، كما أن هناك دعايات سيئة ضد الشعوب الصفراء ، وضد الشرق وأهل الهند فى القصص وفى العرض السينمائى وفى المغالطات التى تظهر فى قلب روايات ومسرحيات أو دراسات عن الخيانة والغدر والفتك الذى يرتكبه الشرقى على زعم كتاب الغرب ليسيئوا إلى أهل الشرق ضد الأوروبى والأوروبية ، ويزعم الأوروبيون زوراً أنه لا يمكن الوثوق بخلق الشرقى فى حين يظهرون أنفسهم فى صورة الحملان الوديعة ، والعكس هو الصحيح .

والدعاية علم وفن فهى علم من ناحيتها الفنية الدقيقة التى تظهر فيها مختلف مطالب ونشاط الإنسان ويعتمد على أساليب العلم الحديثة ونتائج التطور العلمى فى الراديو والسينما والتليفزيون والصحف والمجلات والنشرات كأدوات للدعاية ، وكل هذه الأدوات وسائل علمية حديثة تجعل للدعاية قوتها وأهميتها وفى وجوب أن تعنى بها الدول لكسب الجماهير والدول الأجنبية إلى صفها ، وهذا ما نراه فى اعتماد الزعماء على توجيه خطاباتهم عن طريق الإذاعة للشعب بمجرد توليهم الحكم ، وهذا ما نراه فى مسارعة القادة إلى وضع اليد على الإذاعة بمجرد تولى الحكم لابلاغ النبأ إلى الناس ولوصف خططهم وسياستهم لكسب الرأى العام ، ومكرفون الإذاعة هذا هو الذى وجه منه الملك ادوارد الثامن إلى الشعب بيانه الحزين فى تنازله عن العرش سنة ١٩٣٦ ، وهو الذى وجه منه هتلر خطاباته الحماسية للشعب لتدعيم النازية ، وبالمثل موسولينى لتدعيم الفاشية ، وهو الذى كان يوجه منه تشرشل خطاباته لحث الشعب البريطانى على التحمل لتحقيق النصر ، وهو الذى يوجه منه الرئيس عبد الناصر والبابا وملكة انجلترا وديجول

وغيرهم بين حين وحين — وكذلك شاشة التلفزيون — الحديث للشعب وخاصة فى الأعياد ورأس السنة والمناسبات السياسية لكسب الرأى العام وطمأنينة الجمهور على مصيره ، ومصير السلام وتدعيم صفوفه ، ومن المكرفون هذا بدأت صيحة الثورة فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ عندنا وترتب على ذلك تنبيه الرأى العام الذى سرعان ما أيد الثورة واستجاب للنداء بنفس راضية متحمسة وبقلب كبير .

والدعاية فن يتطلب الشخصية الفذة أيضاً لصاحب الدعوة والذوق السليم والابتكار ، وقد تتضح من عبارات تظهر أنها عبارات عادية لأول وهلة ولكن وسيلة استعمالها أو فن استعمالها له أثره فى النفوس ، وتترك كيفية استعمالها استعمالا صحيحاً أعمق الأثر لتغيير دفة اتجاه الرأى العام .

كما أن الفن يتجلى فى ألوان الدعاية للدلالة على شىء معين كاتخاذ اللون الأبيض للحكمة والسعادة والخير ، واللون الأحمر للثورة الشيوعية ، ويمكن أن نذكر أن من أهم أدوات الدعاية التى تكررها الحكومات فى نشراتها وعلى صفحات الجرائد وفى إذاعاتها برامج الانتعاش التى ترسمها الحكومات لسنوات عدة تتفاوت من أربع إلى عشر ، ويتعين أن تكون الدعاية منشئة وأن تستند إلى الابتداع وأن تهدف، إذا كانت سياسية إلى محاولة إسعاد الشعب ولا تصبح مجرد عمل كتابى وروتين مصلحى وواجب بحكم الوظيفة وخاصة أن الدعاية وتوجيهها غالباً ما تكون فى يد الحكومة اليوم، ويتعين أن يكون القائم بها فناناً بحق ، وليس مجرد ساهر على عمليات الحراسة أو شاغل لمنصب بحكم تسلسل الوظائف والأقدمية ، وأهم ما يجب أن يتحلى به علاوة على روحه الفنية وكفايته فى الابتداع أن يحكم على مقدرة سحرية لاجتذاب الجماهير بفضل روحه الشعبية ونظراته الثاقبات إلى الأمور وعذوبة عباراته ونفسه حتى يمكنه أن يؤثر فى النفوس ، وهو يستخدم الحالات النفسية لصالح الدعاية ، وهو يضرب على أوتار القلوب فتشجى بنغماته العذبة وسرعان ما تتهافت فى صدق وإخلاص وعزيمة لتقوم هى الأخرى بدعاية قوية فى محيطها لصالح الفكرة ، وليس أصدق وأحكم من قوله تعالى فى دعوة الرسول « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » ، وقوله سبحانه وتعالى فى ضرورة رقة الدعوة « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » .

وهذا ما نراه فعلا فى الاعلان عن الأنباء مثلا فتسبقها دائماً الأغانى ولا تأتى مفاجأة وتنتهى مفاجأة . وهى كما رأينا القوة المعنوية التى تغرس فى قلوب الناس الفكرة وتسيطر على الرأى العام وتوجهه إلى الناحية التى تريدها مع المحافظة على مودتها وعطفها وتبادلها مع الجمهور .

وهذه الدعاية التى تحرك الفكرة والمثل العليا وتوجهها إلى عقيدة تبثها فى نفوس المواطنين ويقبل عليها كل فرد على حدة ثم يتجمع حولها الناس فى ركاب جماعى هذا ما يسمى الرأى العام ، كما سبق أن شرحنا ، وتتحول إلى قوة إيجابية وسلبية لاقناع الخارج ولمواجهة التيارات المعادية .

وهذه الدعاية التى تنتزع من الخيال والحقيقة لها مهامها الفردية والجماعية والسياسية ، وهى من أهم دعائم الحياة السياسية فى الداخل والخارج فى عصرنا هذا .

ويتعين ألا تقوم الدعاية على المغالطات والخداع والمبالغات فهى من أهم عوامل هدمها والإضرار بأصحابها مهما طال الزمن عليها إذ أن المغالطة والكذب والخداع والمبالغة فى الدعاية سرعان ما يكشف النقاب عنها ويستبين ضعف هذه الدعاية ويختفى سحرها الأول وتصبح سهماً يسدد إلى صدور القائمين بها ، وشأنها فى هذا الشأن العلامة التجارية المغشوشة يقبل عليها المشترى على اعتبار أن البضاعة المدموغة بها هذه العلامة هى البضاعة الأصيلة ثم إذا اكتشف غشها يعرض الجمهور عن هذه البضاعة مهما صارت جيدة فيما بعد .

وللإنسان ميل قوى لا يستطيع أن يقف فى سبيله فى أن يتأثر بالمغالطة والخداع ، وقد يكون عالماً بها فهو يشعر حقاً بسعادة لا مثيل لها حين يسمع أنشودة خيالية ويود لو يقول له منشدها أنها حقيقة حدثت فى عصر معين ، ولكن لا يجب أن يجرفنا هذا التيار إلى هاوية الخداع وسوء القصد فالدعاية يجب أن تقوم على أسس صحيحة قوية وأن ترمى إلى غرض صادق نبيل وألا تصبح كسحابة الصيف تنقضى دون أن تترك أثراً أو كالدينار المزيف هو براق لامع كالذهب ولكن يتضح عيبه بمجرد حكه فتضيع الآمال فيه وتنفض الثقة من حوله .

الفصل السادس

الرأى العام والطبقات

الرأى العام كما سبق أن بينا هو تعبير إرادى منبعث من فكر وشعور للفرد لا كفرد مستقل وإنما كفرد فى جماعة فهو تعبير جماعى لنشاط سياسى أو اجتماعى للجماعة باعتبار أن الإنسان كائن سياسى ولا يهم أن يكون هذا التعبير منصب على أمر سياسى أو تجارى أو اجتماعى أو ثقافى أورياضى . . الخ ، وقد يكون فى ابداء الرأى فى أمر خطير يتناول مستقبل الدولة ومصالح الوطن وقد يكون فى تشريع من التشريعات التى تنظم المعاملات بين الناس وقد يكون فى سياسة داخلية للحكومة كتفضيل نظام المجلسين على نظام المجلس أو العكس وقد يكون فى استهلاك سلعة معينة أو فى أفضلية صناعة على أخرى وقد يكون فى اختيار نوع من التعليم أو من الألعاب الرياضية أوحتى نوع من التسلية أو المتعة كتعاطى نوع من السجائر أو استهلاك أدوات زينة معينة أورائحة عطرية معينة .. الخ ، ولاتجاهه أهمية قصوى لتنظيم الدعاية والأعلام على أساس التأثير فى تياره وكسب الصفوف للدعوة .

وقد يكون الرأى العام فى صورة أستفتاء أو اعتراض على أمر من الأمور أو مجرد تيارات تتردد صداها فى الصحف أو فى هتافات الجماهير أوفى حماسة للحرب أو للصلح أو للوحدة أو الانفصال ، كما قد تكون تيارات الرأى العام فى الإقبال على نوع من الملبس أوالمأكل أو المشرب نتيجة دعاية أو غيرها ، وقد تستخدم وسائل منظمة لاتبلغ حد الاستفتاء المنصوص عليه فى الدستور ولكنها للوصول إلى مايترتب على الاستفتاء من الميل إلى ناحية أوأخرى وقدتكون مجرد أسئلة توجهها هيئات فنية متخصصة فى مسألة من المسائل كما نرى ذلك بكثرة فى الولايات المتحدة الأمريكية كتفضيل انتخاب رئيس على آخر قبل عمليات الانتخاب أو كالاهتمام بسياسة العزلة أو الخروج عنها ، وقد يكون هذا فى حركة غير منظمة ، وكل فرد يعمل بشعور انتمائه إلى الأمة أوالدولة فحسب ، وتنصب العملية على وحدات من المواطنين ثم تطبق الاحتمالات الحسابية على الوحدات المتشابهة وتستخلص نتائج قلما تخطىء فى ايضاح وجهة النظر الشعبية أو ماقد يقع مستقبلا ؟ ومن الذى سيفوز بالرئاسة ؟ وهل يميل الشعب إلى فكرة أوهو معرض عنها عازف عن تطبيقها ؟

وهذا الرأى يدخل فى إطار عام يقوم على النظام القائم على الطبقات، ونرى خلال هذا الإطار روح الشعب واتجاهاته لإعداد الدعوة والترويج لها وفق مايلائمه لضمان نجاحها .

كما أن وسائل الدعاية قد تتناول أنواعاأخرى من التجمعات الشعبية التى يبرز فى نطاقها الرأى العام ويعبر عن حاجاتها ويرسم وسائل كفاحها فى الأحزاب السياسية والنقابات والجمعيات بما فى ذلك التعاونية وسائر الجمعيات والهيئات الدولية غير الحكومية، وفيما يلى شرحها مع البدء بدراسة نظام الطبقات..

ولا نقصد هنا طبقة معينة أو تفضيل جماعة باعتبار أنها ممتازة بحكم العرق أو بحكم الثورة أوبحكم المستوى الاجتماعى على طبقة أخرى ، وإنما نقصد بذلك تفكيراً تبلور واتجه فى تيار معين بحكم بيئته ولايعنى بهذا أنه لايمكن خروج فرد لظرف من الظروف عن طبقته إلى أخرى فالطبقة فى هذه الحالة هى إطار معنوى يجمع فى حدوده وجه من وجوه الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية بحكم تربية سياسية وعلاقات اجتماعية بين أفراد معينين .

وهذه الطبقة لاتتكون بين عشية وضحاها وإنما بحكم ماضيها وتاريخ وظروف وحاجات معينة ، وهكذا يشعر القوم الذين فى حدود هذا الإطار برغبة مشتركة فى حياتهم فى هذا الإطار ، ويقوم هناك توافق فى عقليات هؤلاء القوم وتفاهم ضمنى فى كثير من الأمور وتتوثق الصلات بينهم ، ويتحد تفكيرهم فى أمهات المسائل التى تعنى طبقتهم ولايخرجون عن هذه الطبقة شأنهم شأن فصائل الكائنات الحية التى تتكأكأ كحزمة للدفاع عن مصالحها ويشعرون بالغربة والضيق إذا نأووا عن طبقتهم أو عن تفكير هذه الطبقة .

وتسرى فى نفوس أهل الطبقة فكرة معينة سرعان ماتتفق مع روح طبقتهم على أساس وعى متحد ويستجيبون إلى عاداتهم برأى عام موحد لهم ويصعب أن يقبل العضو فى هذه الطبقة وجهة نظر الطبقة الأخرى أويتفهم مرمى الرأى العام لغير طبقته .

ولكن لا يعنى بهذا أن طبقة من الطبقات تمتاز برأيها العام على الأخرى أو أن رأيها سواء مثل غالبية فى الشعب أوأقلية هو الرأى الصحيح ، وقد يكون الرأى ضعيفاً وبعيداً عن المنطق رغم أنه تعبير عن تفكير الملايين ويقول أناتول فرانس **Anatole France** ماخلاصته بأن غالبية تقدر بثلاثين مليون نسمة يعطون أصواتهم لمصلحة فكرة سخيفة ، فلا ينفى سخافتها هذا التصويت » ونرى أن طبقة معينة مثلا تعتقد أن فكرة من الأفكار السياسية خطيرة وضارة للإنسانية بينما أن أخرى ترى فيها أنها الجنة الموعودة ،

والطبقات الثرية التى تمثل رجال المصانع والمزارع الواسعة وأهل المدن الذين أثروا ثراء كبيراً من المهن الحرة أوغيرها فيرون الخطر كل الخطر ويعبرون فى رأيهم العام عن هذا الخطر فى فرض قيود صارمة على النظام الرأسمالى عندهم فى البلاد أوفى القضاء عليه بينما أن رأى طبقة العمال « البروليتارية » قد ترى العكس وأن من لايعمل لايأكل .

وتتخذ عادة الطبقة قاعدة مادية فى حياتها ، هذه القاعدة تنصب على الحى الذى تعيش فيه والمواد التى تستهلكها والمحلات العامة التى تتردد عليها والمسكن والمأكل والملبس بل حتى مدارس أولادهم ، ولا يهم فى هذه الحالة مدى ثروة كل عضو فى الطبقة وإذاخرج عضو من هذه الطبقة — إذاكان من الطبقة الثرية التى يعبر عنها خطأ بالارستقراطية حتى إذا كانت موارده محدودة — إلى قاعدة مادية أخرى ومسكن فى حى آخر فانه يشعر بالضيق وقد لايطمئن إلى البيئة الجديدة وإلى الحال الجديد ،وهو على صغر دخله فى الحى الذى ينتمى إليه يطمئن أكثر فيه من المكان الجديد الذى لايتأقلم فيه.فقد اتخذ طابع حيه القديم واطمأن إلى صفاته وعاداته التى لايريد لها بديلا شأنه شأن سكان الأدغال التى تتخذ من أقلمتها اهابا وهذا الإهاب فى لون الغابة التى تقطنها لأبعاد الخطر عنها ، وان الفتاة مثلا التى تعقد قرانها على أحد أبناء طبقة أخرى لاينظر إليها الناس وخاصة الأقربون إليها بنفس النظرة التى تلاقيها فتاة يعقد قرانها فى صميم طبقتها ، ولكن لأنواع هذه الطبقات أثراً اجتماعيا فحسب وليس لها أثر قانونى وامتياز بحكم الدستور وقد زالت الفوارق منذ ثورات التحرير بين الطبقات ولم تعد هناك طبقات كما كان فى الماضى طبقة الشعب ورجال الدين والأشراف والنبلاء وما يتمتع به رجال الدين والنبلاء وهم الأقلية من مزايا ليس لطبقة أبناء الشعب مثلها مما أدى إلى ثورات نهاية القرن الثامن عشر ، بل كل مافى الأمر أن هذه الطبقات وهى اليوم مكونة من طبقة كبار رجال المهن الحرة والصناعات والأعمال الذين أثروا من التجارة أو غيرها فى المدن ثم الطبقة المتوسطة المكونة من رجال الصف الواعى عادة وأصحاب المهن الحرة والمواطنين ثم طبقة الفلاحين والعمال فى المصانع .

وهذه الطبقات على اختلافها تتسم بحريات متماثلة دون تمييز وهى على قدم المساواة فى حقوقها القانونية والسياسية وتغرف سويا من مناهل العدالة الاجتماعية وكل مافى الأمر أن أهدافها فى بحثها وراء الصالح العام والسعادة تختلف باختلاف بيئتها ، وفيها تتكون تيارات الرأى العام المختلفة على اختلاف الطبقات ، ويمكن من دراسة هذه التيارات توجيه الدعاية الصحيحة لكسب الأنصار .

ونرى مثلا فى قرى فرنسا وغيرها من البلاد الصناعية الأوروبية أن القرية بجوار المصنع تمثل طبقة من الساخطين على سياسة الحكومة الخاصة بالعدالة الاجتماعية وهى خاصة

من خواص مابعد الحرب العالمية الثانية فالكل يريد المزيد من الأجور والمزيد من الانفاق لأن البروليتارية تسيطر على هذه المنطقة . ونرى مدينة كبيرة فى مقاطعة من المقاطعات التى اشتهرت بمزارع القمح أنها أكثر حرصاً على مصالح متوسطى الحال من الزراع وغيرهم وتيارها العام معتدل يميل إلى سياسة التطور أكثر من ميله إلى العنف وقلب نظام الحكم ، ونرى فى المدن الزراعية الفرنسية فى مجتمع يضم مجموعة من شتى ألوان المجتمع أن الطبيب يمثل طبقة الأثرياء المحافظين وقد انحدر من أسرة ثرية لأن دراسات الطب تحتاج إلى وقت وإلى مجهود ومصروفات كبيرة مع استمرار الانفاق على الطبيب الشاب حتى يمكنه أن يعتمد على نفسه بعد مدة من تخرجه ولايتوفر هذا إلا بين المحافظين من الأثرياء بينما أن الصيدلى الذى يدير صيدلية القرية أوالمدينة ينتمى إلى فريق اليسار نظراً لاختلاطه المستمر بالجماهير ولكسب العيش بعد التخرج القصير الأجل مما لايتوفر للطبيب أوحتى كذلك مما لايتوفر للمحامى أومن على شاكلته . والطبيب البيطرى نجده أكثر انتماء إلى اليسار من الجراح وذلك نظراً لكثرة اختلاطه بالفلاحين فى القرى لعلاج دوابهم وماشيتهم ونظراً للأجور المحدودة التى يتقاضاها وهى لاتبلغ أجور الطبيب والجراح ، وأما سائر موظفى البلدية فهم على عكس صغار المزارعين والملاك الذين ينتمون إلى أحزاب اليمين والقلة منهم يساريون .

وتيارات الرأى العام تختلف باختلاف الوسط المذكور ويعبر الصيدلى أو الطبيب البيطرى وصغار الموظفين الذين يترددون على الصيدلة أوعلى مقهى القرية عن الرأى بين الوسط واليسار نظراً للجور الذى يعتقدون أنه يحيط بهم ، بينما يعبر صغار المزارعين وصغار المدخرين والطبيب الجراح ورجل القانون عن رأى أقرب إلى اليمين من المذكورين وهكذا نرى تيارات من الرأى العام مختلفة ونظرات فى الحياة وفى مثلها متباينة وأمانى وآمالا متضاربة ، كل وفق طبقته .

والطبقة هذه ليست تكوين يقوم على الدستور أوعلى قانون ، إنما تقوم على أساس نشاط اقتصادى للشعب وعلى العرف وليس لها آثر فى حقوق الفرد وواجباته ، وفى سيادة الشعب وأن الجميع سواء أمام القانون ، ولكن تفوق طبقة أخرى فى الحقوق السياسية وفى تمثيل الأمة .

وكل مافى الأمر أن أثر الطبقة يتضح فى تيار الرأى العام وليس بغريب أن يخرج فرد من طبقة إلى أخرى ، فقد يبدأ الإنسان فى طبقة تمت إلى البروليتاريا ثم يخرج منها بعد كفاح وكسب فى العالم الرأسمالى إلى طبقة محافظة يمينية مالكة تتأثر عقليته بالوسط الجديد ، كذلك ليس من المحتم أن يعبر العامل لأنه لايملك شيئاً يذكر عن رأى يخالف رأى الرجل المحافظ الرأسمالى ، ورأينا أمثلة عديدة على هذا الوضع وأخرى عكسية وقد

كان رجال التفكير الاشتراكي من الطبقة الوسطى ، بل ومن رجال الاشتراكية الإنسانية من كان يمت إلى الارستقراطية مثال ذلك « سان سيمون » Saint-Simone وتولستوى Tolstoi ومن الانارشيين من ينتمى إلى طبقة الأمراء مثل البرنس كروبتكين Kroptkine ويخطىء من يعتقد أن مفكرى الاشتراكية العلمية ودعاة الشيوعية هم من بين حملة الفؤوس والمعاول فقد كان كارل ماركس ولينين من أسرات فى مقدمة الطبقات الواعية المتوسطة الحال .

ومن بين أبناء الطبقة الوسطى من كان ينادى بالتضحية والعزم لصالح اليد العاملة وكان ستالين فى شبابه ينتمى إلى الطبقة الشديدة التمسك بالتقاليد وبدأ بدراسة اللاهوت وعلوم الدين .

وبمناسبة ماذكرناه عن تولستوى نكرر بأنه كان له قلم بارع فى تصوير آلام البشرية والدفاع عن الاشتراكية رغم نشأته فى الدمقس والحرير والنعمة العريضة إلى حد أنه تنازل عن أملاكه وهو من النبلاء ليعيش عيشة البساطة والتقشف .

والخلاصة ان الطبقات تحدد تفكير الرأى العام وفق مصالحها ، ويمكن رسم الدعاية على أساس هذه المصالح للحصول على كسب جديد لها ، كما أن الخروج من الطبقة الأرستقراطية إلى الأخرى العاملة كما فى حالة تولستوى خير دعاية للطبقة العاملة .

الفصل السابع

الرأى العام والأحزاب السياسية

الأحزاب السياسيةهى العمود الفقرى للنظم الدستورية البرلمانية فى الغرب وهى التى تربط الرأى العام هناك بأداة الحكم وتعمل على تحقيق أمانى الشعب .

والأفراد فى ظل هذه الجماعة السياسية المنظمة وهى الأحزاب بروحهم وطابعهم وبمزايا الأحزاب وبتعبيرها فى رسالتها كوسيلة من الوسائل الاجتماعية تعتقد أن فيها مصلحة وحاجة الشعب يبنون أى الأفراد الثقة بالحزب والانصراف عن الآخر ، وتحاول الأحزاب أن تعالج أوجه النقص عن طريق التطور التشريعى فى البرلمان وبذا تصبح الصمام للنظم الدستورية الغربية ، وارادة الشعب هناك وأمانيهم تتبلور فى فوز الحزب أوفى خذلانه فى المعركة نتيجة اتجاه الرأى العام ، ولكن لايعنى بهذا أن الغالبية تكون دائما على حق وصواب ونردد ماقاله أحد كتاب الغرب المشهورين من ذوى الميول اليسارية والنقد اللاذع وقد سبق الإشارة إلى رأيه هذا وهو أناتول فرانس فى أن رأى تعبر عنه الغالبية التى تصل إلى ٣٠ مليون مثلا إذا كان سخيفاً فإنه سيظل سخيفاً ولاتتغير سخافته لأن الغالبية هى التى عبرت عنه ، وهكذا فى رأيه أن الأغلبية لاتكون دائماًعلى صواب .

وهذه الإرادة التى ترجحت من اتجاه الرأى العام تسعى بعد الظفر إلى الدعاية لتنفيذ برامج الإصلاح والأنعاش ويترتب على اخفاق الحزب الحاكم فى تحقيق وعوده خذلانه إذا دقت ساعة الانتخاب ثانية واللجوء إلى الرأى العام ، وهكذا تفلت منه الوزارة وتتولى المعارضة الحكم بعد أن تحصل على الأغلبية ، وقد خلع الشعب عليها ثقته ، وهذا مانشاهده فى تناوب العمال والمحافظين الحكم فى انجلترا ، وكأن المعركة الانتخابية وتباين الدعوة للحزب والتبارى فى الخطب والحملات مباراة رياضية للرأى العام بين فريقين ، وفى النهاية يمد الفريق المهزوم يده ليصافح المنتصر ؛ والأحزاب تنشأ تبعاً لحاجات البلاد ومطالب الشعب وكل له طريقته فى السياسة ويحاول بهذا الاتجاه أن يكسب الرأى العام ، ونشأت بحكم هذا التنافس السياسى الوئيد تقاليد وعادات فى الدعوة السياسية والحزبية وفى تولى الحزب الوزارة هى فى صميم الخلق الانجلوسكسونى .

والأحزاب تختلف باختلاف الآراء السياسية وطبائع الناس وحاجاتهم ، وقادة الأحزاب يستقون من المثل السياسية والاجتماعية والاقتصادية مايعتقدون أن فيه الإصلاح ، وهى تحاول عن طريق درس الرأى العام أن تجعل برامجها تتمشى مع رغبات الجماهير حتى يمكن للفرد الناخب أن يختار الفكرة التى تروق له ليعطى ثقته أويسحب ثقته ، ويترتب على ذلك أن تتكون برامج تطرح على الناس جلية واضحة يعلن عنها وتوزع فى نشرات وتوضع تحت تصرف الجمهور فى الصحف وبواسطة الخطباء وهكذا تقوم صلة وثيقة منتظمة مستمرة بين الرأى العام والحزب والنواب والناخبين عن طريق الصحافة واجتماعات الحزب واللجان المختلفة بالمدن والمراكز والقرى ، وتفسر لسواد الشعب وجمهرته فى هذه الاتصالات والاجتماعات تصرفات الحكومة ومبرراتها ، ويتعين فى البرامج للنجاح الحزبى أن تتمشى مع التطور وأن تعقد لهذه الغاية المؤتمرات العامة والفرعية لدراسة مشاكل المجتمع وحاجات الشعب ولامانع من تعديل البرامج وسد النقص حتى لايؤدى الجمود إلى انفراط عقد الحزب وفقدان الأنصار.

والأحزاب لها جنودها وهناك أحزاب الجماهير يتكون جنودها من الشعب وأبناؤه وهى تعمل على كسب أكبر عدد من الأنصار من صفوف الشعب ومنها مثلا الحزب الاشتراكى فى فرنسا ، وأحزاب اللجان تكتفى بأن تضم إلى صفوفها كبار الشخصيات من أصحاب المصالح وذوى الثروات والعصبيات، ويطلق عليها أحزاب اللجان لأنها تعتمد فى نشاطها على لجان عدد أشخاصها محدود ولاتعتمد على الجماهير ومثل ذلك الحزب الراديكالى فى فرنسا .

والرأى العام هو الذى يحدد فى النهاية مدى قوة كل منهما . وقد يؤثر العامل الشخصى والدعاية تأثيراً كبيراً فى الانضمام إلى حزب وفى الترشيحات لحزب كما نرى فى الولايات المتحدة الأمريكية .

والدعاية كما سبق أن بينا من أهم أسباب نجاح الحزب ومعنى هذا أن الحزب يسعى لكسب الرأى العام فى صفه بقوة وتنوع وسائل الدعاية ، وهذا من أهم ماتتميز به الأحزاب الشيوعية فى فرنسا وغيرها ، وتخضع الدعاية فى الرأى العام وإعداد البرامج للبيئة والمناخ السياسى بمافى ذلك مزاج الأهلين ومستوى ثقافتهم وللعامل الوطنى وحريات الفرد ومصالح الدولة وحدودها ووقاية البلاد من الطامعين والسعى لرفع مستوى الشعب وتوفير أسباب العيش للمواطن ووقايته من الأدواء الاجتماعيه والمادية .

وما يصلح للدعاية للتأثير فى الرأى العام فى بيئة غربية وفى مناطق الصناعات الثقيلة والتعدين فى الخارج لايصلح للدعاية فى بلاد زراعية محافظة أوفى بلاد تسعى طريق النمو وتحتاج إلى جمع الصفوف والوقوف كالبنيان المرصوص لدرء أطماع

الاقطاع والاستغلال والاستعمار عنها وللمحافظة على مستوى خلقى على أساس التقاليد والعرف والدين وبناء وطن بناءاً اشتراكياً قوميا ، وفى هذه الحالة تصبح الاشتراكية قومية ، ولكل بلاد اشتراكية نابعة من أرضها وهى لاتصلح للتصدير إلى بلاد أخرى ، وهكذا نرى أن الوضع عندنا ونحن فى طريق البناء يختلف سياسيا عن الوضع فى العديد من البلاد فى الخارج ، ولامجال عندنا للتطاحن الحزبى وللدعوة الحزبية وهما مضيعة للوقت والجهد وتهديد للوطن أثناء أدق مرحلة فى تطوره ، وبناؤه يحتاج إلى التكاتف فى ظل الاشتراكية العربية للسير ببلادنا وبالأمة العربية سريعا فى طريق النهوض.

وتحتاج الدعوة للحزب والانتخابات حتى تثمر ثمرتها فى الرأى العام إلى بعض القواعد ومن أهمها مايأتى :

١ ــ أن تكون محدودة الأغراض للمرشح فيتعين ألا يخرج الحزب أودعوة الناخب السياسية عن حدود معينة حتى لاينقلب الجدال إلى مغالطات فتسىء إلى القائمين بها فى النهاية ، ويذهب التنظيم إلى حد تعيين الأماكن التى تلصق فيها الإعلانات للدعاية وعددها وكذلك تحديد أحجام الإعلانات التى توزع وتحديد مواعيد توزيع المنشورات الخاصة بالدعاية ، كما تقوم الدعاية على الخطابة وسائر البيانات الشفوية فى حدود معينة .

٢ ــ أن تكون الدعاية علنية ويعهد بها إلى لجنة تشكل فى حدود القانون مهمتها تنظيم توزيع المظروفات والمطبوعات والمنشورات ورقابة المطابع التى تطبع فيها الإعلانات والنشرات وسائر الأعمال التنظيمية التى تتناول النشرات التى توزع على الجمهور .

٣ ــ أن تكون الدعاية غير مغرضة لاتقصد سوءاً ، وهى بدون مقابل فإذا كانت على أساس الانفاق وبالتالى على أساس بعثرة الأموال واستمالة الجماهير بالإغراء النقدى أو المادى أصبحت رشوة ، إذ سيحصل المرشح على النيابة كل ماكان أوفر مالاوأوسع ثراء ، وبذا تتأثر هذه الدعاية بروح شيطانية بعيدة عن المثل السياسية وعن الوسائل الديمقراطية السليمة وهى تحقيق سيادة الشعب ، وتصبح أداة فى يد نفر لتحقيق مصالح شخصية ، وتسير العدوى إلى مختلف أجهزة الحكم وإلى صميم السلطة التنفيذية ، ويذكرنا هذا بأبيات لشاعر عربى وجه نقداً مراً للرشى فى أواخر العصر العباسى بمناسبة بيع الولاية على المدن الكبرى نظير دفع الثمن وولى الوزير الكوفة لأشخاص بالتتابع وحار كل فيمن له الحق فى الولاية وهجاه أحدهم بقوله:

وزير لا يمل من الرقاعة	يولى ثم يعزل بعد ساعة
ويدنى من تعجل منه مالا	ويقصى من تذرع بالشفاعة
إذا أهل الرشى ساروا إليه	فأوفى القوم أوفرهم بضاعة

والأحزاب السياسية ليست إلا صورة بغيضة من صور الرأى العام تتحول إلى شبح باهت مشوه إذا استوردت من الخارج لمجرد التشبه بما يجرى فى الخارج إذ تنقلب إلى نوع من المتاجرة والاستغلال واستخدام المصالح الشخصية وتصرف الأمة وهى فى طريق النمو عن العمل الصالح والجهود الحقة فى سبيل بناء الوطن وتتحول وقد انشغلت بتطاحن على الأشخاص ومصالحهم الذاتية والتراشق بالتهم عن قضية البلاد الكبرى وعن استمرار تحقيق برامج اصلاحية وخطط لرفع مستوى الفرد المادى والمعنوى ، وتنصرف إلى التهافت على الحكم وشهوة السلطان ويصبح دولاب الدولة منحصراً فى تعاقب الوزارات على كراسى الحكم دون سير إلى الأمام وإصلاح جدى وهذه الأحزاب أحزاب أشخاص لا أحزاب مبادئ كما كان الوضع عندنا قبل ثورة سنة ١٩٥٢ وهذا ما عمل الشعب على تلافيه ، وهو مطالبة الأحزاب بتطهير نفسها من أدران المفاسد السياسية ، ثم تقرر تأجيل اجتماعاتها ، ثم بعد ذلك حلها وإلغاؤها وقد تعذر السير بالبلاد قدما على أساس الثورة الشعبية العارمة وما تضمره الأحزاب وتبنيه من أغراض ذاتية لتحقيق مصالح لأعضائها دون اعتبار للصالح العام .

وهكذا كان التطويح بالأحزاب عن طريق ثورة سنة ١٩٥٢ لكى يواصل الشعب البناء وإعلاء شأن الوطن وتحقيق برامج الإصلاح وإنشاء دولة اشتراكية عربية قوية الدعائم لا للانصراف إلى التطاحن الحزبى والانصراف عن مصالح الشعب حلا سليما وموفقاً ، فإن الأحزاب المختلفة عندنا كانت تطمع جميعاً فى كراسى الحكم وكانت تمنى الشعب بالكثير دون أن تحقق مقدار ذرة منه ، وقد بلغ عددها ثمانية أحزاب لم يك رائدها فى تصرفاتها الخلق السياسى القويم كما ذكرنا فى مناسبات عدة ، ولم تهدف فى خطبها المتعددة التى نطقت بها خطب العرش إلى سياسة قائمة على المثل العليا ، بل كانت خطبا تشرح أعمال حكومة روتينية عادية ، مثل أهمية مراقبة السينما وحظر دخول الأولاد إلى سن معينة فى دورها وتعميم المجارى والتوسع فى انشاء مكاتب البريد ورفع أسباب القلق والإبهام فيما يتعلق بشئون الموظفين وتشجيع تربية الدواجن ومراقبة الملاهى وتنفيذ مشروع كهربة سكة حديد حلوان ، وهى أمور فى صميم أعمال المصالح الحكومية ، هى أعمال روتينية لاتعبر عن سياسة عليا حتى تكون مرشدة للشعب ليعمل بكل قلبه وحواسه فى سبيلها .

ونرى اليوم سياسة للبلاد على أسس من المثل العليا للعدالة الاجتماعية وتهيئة الفرص لكافة الناس وتذويب الفوارق بين الطبقات فى تحليل السياسة العربية للجمهورية العربية المتحدة وصفاتها الاشتراكية والوحدة العربية والحياد الإيجابى وعدم الانحياز والدفاع عن قضايا السلام العالمى فى الأمم المتحدة والوقوف فى وجه الاضطهاد العنصرى ومد يد

المعونة للشعوب الشقيقة والصديقة لتحريرها وغير ذلك من السياسات الجدية المنتجة التى تعبر عن أمانى الشعب ولا سيما ما يكنه فى جوانحه من آمال عراض فى تحقيق المساواة والحريات الاقتصادية وهدم الاستعمار بلا رجعة وهى من صميم الرأى العام الحاضر اليوم ، وتنظم الدعاية بين أبناء الشعب على أساس هذه المبادئ السامية .

ومما أزعج الحياة السياسية فى فرنسا فى السنوات الأخيرة ماقامت به الأحزاب السياسية من تصرفات أقلقت راحة الجمهور وصارت البلاد على شفا هاوية من البؤس والدمار وعرضتها لحرب أهلية محتملة ودلت على الفساد الحزبى الذى ضرب أطنابه فى طول البلاد وعرضها ، وتطاحنت الأحزاب فى سبيل الوثوب إلى كراسى الحكم واشتبكت فى صراع سافر بالتراشق بالتهم بالحق والباطل ، بمحاولة كل قلب الحكومة القائمة ، واستعرت الحرب فى الجزائر بشدة ونزفت البلاد أموالها ودماء أبنائها فى حروب المستعمرات دون طائل ، مما ترتب عليه مسارعة المتزنين من رجال السياسة يؤيدهم الشعب إلى الالتجاء إلى ديجول كحكم ورمز للانتهاء من تطاحن الأحزاب ولوضع دستور جديد للجمهورية الفرنسية ، وكان ذلك سنة ١٩٥٨ ، وهكذا قامت الجمهورية الفرنسية الخامسة تودع بلا رجعة الفساد الحزبى وتصفى المشاكل الداخلية والخارجية وفى مقدمتها مشاكل الاستعمار ، وتمخض الحال عن انتهاء حرب الجزائر واستقلالها باتفاقات افيان سنة ١٩٦٢ وعودة النظام والانتعاش الاقتصادى للبلاد .

والأحزاب السياسية أهمها مايأتى :

١ ــ أحزاب اليمين ــ وهى أحزاب محافظة ذات آراء رأسمالية واستعمارية وهدفها الدفاع عن ثروات الملاك لاسيما كبارهم ، وهو دفاع طبقة من القلة ثرية للوقوف فى صف الاستعمار والاحتكار والاستغلال ، وهى إذا قدمت المعونة لجمهرة الشعب والطبقة العاملة فعلى كره منها وكفتات المائدة .

ونرى فى الإمبراطوريات الكبيرة أنها تتأثر بدورها دفاعا عن الروح العسكرية لتأييد الإمبراطورية والرأسمالية بسياسة هذه الأحزاب الكريهة ، وتعتمد على نوع معين من المثقفين ذوى الأفق الضيق وعلى الملاك الزراعيين الذين يملكون أراضى واسعة وعلى كبار رجال الصناعة ومؤيديهم وعلى رجال الدين الذين لا يدركون من الدين إلا أنه أداة للكسب أو مهنة من المهن وعلى صنائعهم الذين يعدونهم لتأييد السياسة الاستعمارية وهذه الأحزاب تعتمد على الكنيسة الكاثوليكية فى البلاد المسيحية .

وهى تلجأ إلى دعايات واسعة النطاق عن طريق شراء الصحف والذمم والكتاب لتأييد الفكرة ، ولاتجد صدى لصوتها فى الجماهير إلا نتيجة انفاق أموال طائلة وكان

الاستعمار فى ألمانيا القيصرية يعتمد عليها ، كما أن حزب المحافظين فى انجلترا وقد أخذ يتطور أخيراً كان ينهج هذه السياسة ، وهناك طائفة من الأحزاب اليمينية فى فرنسا ، وبلجيكا وغيرها من الديمقراطيات الغربية شديدة التمسك بهذه الأفكار ، وهى تظهرها فى قالب براق حتى لاتكشف عن وجهها النقاب ليرى العالم مساوئها ، بالقول مثلا أن الحزب سيدافع عن الملكيات الزراعية بما فيها الملكيات الصغيرة وسيحمى العمال وسيتمسك بالمستعمرات والأملاك فيما وراء البحار فى سبيل إيجاد أعمال وأرزاق للناس فى سبيل الدفاع عن ثروة الوطن الأم وسيقوى الجيش وسيسير قدما فى التسلح للدفاع عن الإمبراطورية وسيترك الأسواق للمنافسة الحرة وفى الحقيقة لكى تبتلع الاحتكارات الملكيات المتوسطة والصغيرة ولكى تثرى كبريات المشروعات الصناعية عن طريق التسلط فيما وراء البحار .

ولدى الحزب وأنصاره من قوة المال مايمكنه بواسطتها أن يقوم بدعاية واسعة النطاق فى الصحف وغيرها ويجد من القوة ما يستطيع بواسطتها أن يقيم حكومة أخرى.

٣ — أحزاب اشتراكية واشتراكية معتدلة وأحزاب وسط — وتقوم على فكرة اشتراكية المثل العليا والاشتراكية الإنسانية ، وهى تؤمن بالتطور فى سبيل السير بالبلاد نحو التقدم وتأتى فى صف الملكيات المتوسطة والصغيرة ، وتحاول أن تحد من جبروت الاحتكارات والرأسماليات الكبيرة وتعمل على رفع مستوى معيشة الفرد وتحقيق العدالة الاجتماعية ولاتقف فى صف الاستعمار كما أنها لاتقلب الأوضاع بالغاء النظام الرأسمالى الفردى أو الميراث وأن كانت تأخذ بفكرة الإصلاح الزراعى مثلا وزيادة نسب الضرائب على التركات والأخذ بسياسة تأميم واسعة النطاق لصالح الشعب ونشر الجمعيات التعاونية والحيلولة دون أن يصبح الامتلاك أداة لاستغلال الشعب .

وهى لاتجنح نحو التفكير الثورى والانقلابات العنيفة بل ترى الوصول إلى الحكم بالطريق البرلمانى المشروع وباقناع الناخب وكسبه إلى صفها ولاتخرج عن هذه المبادئ إلااضطراراً ، على أن تتحقق الاشتراكية بالطريق العادل لابالثورة الحمراء أوالشيوعية ، وهى تنادى بحقوق اقتصادية للفرد على نمط الحقوق السياسية وباعتبار أن مبادئ الثورة الفرنسية التى عمت العالم فى آخر القرن الثامن عشر وقفت عند حد حقوق الإنسان السياسية أى فى منتصف الطريق ويجب أن تتعداها باستمرار إلى الحقوق الاقتصادية والعدالة الاجتماعية .

ويلاحظ أن هذه الأحزاب كما ذكرنا لاتهدم الرأسمالية وإنما تعترف بالرأسمالية التى يحققها الفرد عن طريق الجد والكدح ، لذا تلجأ إلى سياسة فرض الضرائب

المتصاعدة لتحقق العدالة الاجتماعية وإلى وسائل الإصلاح الزراعى بتوزيع الأرض على الفلاحين وتحديد الحد الأقصى لامتلاك الفرد الأرض الزراعية لترد إلى الفلاح والكادح حقه فى الأرض باعتبار أن الأرض ملك لمن يفلحها ، وتتوسع فى النظم التعاونية ولكنها لاتهدم كيان الأسرة ولاتقضى على نظرية الإرث بحال وتأخذ فى الاعتبار القواعد الإنسانية والدينية التى تبنى المجتمع .

وتعتمد هذه الأحزاب على اختلافها على الطبقات المتوسطة والشباب المستنير وطوائف من المشتغلين بالزراعة والصناعة وصغار الملاك ، وهى تنادى دائماً بأن أزمة الرأسمالية الحالية ترجع إلى طغيان الاحتكارات التى قتلت مجهود صغار الملاك وأصحاب الحرف وأن على الحزب أن يشجع الملكيات الصغيرة وصغار الصناع والتجار وأن يعتمد على نظم تعاونية فى بناء صرح الدولة الاقتصادى والسياسى ، وهى شديدة الثقة بأن الطريق الطبيعى الصحيح هو البرلمان لا الثورة الحمراء والتطور لا الهدم ، ثم صعوبة البناء بعد ذلك ، ولكنها ترى إذا تعذر عليها العلاج فلامانع من الثورة فى سبيل تحطيم الجمود .

وهى تكثر من نشاطها بين عدد وفير فى أفق متسع وأفق صغار ومتوسطى الحال وأصحاب الملكيات الزراعية الصغيرة وأصحاب الحوانيت الصغيرة وصغار الموظفين والمستخدمين وعدد وفير من الشباب والمثقفين ، لذا كانت قاعدتها متسعة وعملها أفقى أكثر منه رأسى ، وأصحاب هذه الشبكة من الآراء يضمنون بواسطتها أن يحصلوا تدريجياً على غالبية تمكنهم من الحكم ، ودعوتهم جادة وهى عن طريق نشر آراء صحيحة تصادف هوى فى نفوس سواد الشعب .

٣ ــ أحزاب اليسار المتطرفة ــ وهى تقوم على الاشتراكية العلمية والمنطق المادى للتاريخ وتعتمد فى دعوتها على هدم الرسمالية والمناداة بدكتاتورية البروليتاريا وألاتفاهم بين الرأسمالية والعمال ووجوب أن يتقلد العمال الحكم عن طريق الثورة والعنف وأن النهاية هى إحلال المصنع أوالنقابة محل الدولة فى الحكم .

وهذه الأحزاب الحمراء لاتعترف بالرأسمالية الفردية ولابالميراث ولها مثل مختلفة عن العالم الرأسمالى فيما يختص بنظام الأسرة ، وهى تنادى بألا تهادن بين الاشتراكية العلمية والرأسمالية ، وأن الثورة العالمية ستؤدى إلى انهاء النظام الرأسمالى ، وتعتمد على العمال وعلى طبقة يطلق عليها طبقة البروليتاريا « أى العمال » وعددهم وفير فى تحقيق الثورة ، وأطلق عليهم بروليتاريا نسبة إلى كلمة بروليتير **prolêtaire** أى الذين لا يملكون من حطام الدنيا سوى الملبس وأولادهم وهذه العبارة مشتقة من نظام روما القديمة

والبليب Plèbe ورجال اليسار المتطرفون يلجأون إلى البروليتاريا فى سبيل الاستيلاء على الحكم عن طريق هدم النظام القائم بالثورة وقيام دكتاتورية بتأييد النظام اللارأسمالى ولايعترف بالملكية الفردية ، على أنهم فى البلدان ذات النظام البرلمانى يتهاونون مؤقتا بالنزول إلى ميدان الدعوة السياسية والدخول فى الحملات الانتخابية لإرسال مرشحيهم إلى البرلمان ، على أنه فى استقرار الحكم فيما بعد ، بعد عشرات سنوات مثلا ، ستنتهى دكتاتورية البروليتاريا بتنظيم وسيطرة النقابات لصالح الشعب .

وهذا النوع من الأحزاب يرتكز على قوة العمال وعلى الدعوة بينهم وعلى استخدام أكبر عدد من الدعاة بين طبقات الشعب لجذبهم إلى الفكرة وعلى نشر مبادئ هذه الاشتراكية بين الكادحين وبث دعوة مستمرة لسيادتهم حتى يؤمنوا بها وتتغلغل اللجان والخلايا بين العمال أى الشعب ليكسبوا أكبر عدد لناخبيهم ، ويسيطر رجال الحزب فى نظام هذا الحزب الواحد على الفكر وعلى تصرفات الأفراد وعلاقاتهم بعضهم ببعض فى سبيل تحقيق مبادئ الحزب فى اطار هدم النظام الرأسمالى الفردى وإقامة نظام أساسه أن « لكل وفق حاجته » وهى مبادئ خداعة ، إذ يتعذر مراعاة أن لكل وفق حاجته مع ملاحظة تفاوت الكفايات والقدرة على الإنتاج والذكاء ومع ملاحظة أن الحافز الإنسانى هو الباعث على تطور المدنيات ورقى الفرد والجماعة ، وإذا أخذنا بأن لكل وفق كفايته وعمله خرجنا من نطاق الاشتراكية العلمية فى وضعها الأرثوذكسى التقليدى أى النظرى المحض .

وتطبيق الفكرة الشيوعية هذه تتطلب نشاطا أفقياً واسع النطاق إذ أنها وان كانت غالباً ماتلوح للعمال بملكيتهم الجماعية لوسائل الإنتاج وأدواته وحصولهم على حاجاتهم فإنها تقضى على الإنسانية ونشاط الفرد وكفاياته وطبيعة البشرية فى الاستئثار بالشىء الذى يبذل فى سبيله جهوده .

ويكفى لكى نرى صعوبة مراعاة هذه المبادئ اليسارية المتطرفة أن نلاحظ أنها لاتخضع إلا للمادية والقوة وأن فكرة الإرث واحترام الرأى والعقيدة ومراعاة الأسرة وتشجيع الكفاية واحترام ثمرة العمل والادخار والملكية الفردية القائمة على الجد والتعاون بين الناس والنقد وكل ماورثته الإنسانية على مر القرون لاتأخذ مكانها اللائق فى هذه العقيدة إذا أخذت بحرفيتها النظرية . إذ أن هذه المبادئ القويمة ليس لها عيش فى التفكير وفى المذهبية الشيوعية ، هذه المذهبية التى تفضل التعصب للعقيدة على الرأى .

غير أن البون شاسع بين النظرية والتطبيق ، فلم تطبق فكرة أن لكل وفق حاجته فى الدولة الشيوعية الأولى وهى الاتحاد السوفييتى وصار لكل وفق عمله وكفايته ، كما أن

النقابات لم تحل فى تنظيم حياة الأفراد السياسية محل الدولة وهذه هناك أقوى اليوم بادارتها ونظامها البيروقراطى بمعونة الحزب الشيوعى وبالجيش وسائر القوى العسكرية من أى وقت مضى ، كما أنها مالبثت أن سارت فى سبيل التعاون مع العالم الخارجى وأخذت بفكرة التعايش السلمى مع سائر الدول والشعوب ،وأن اختلاف المثل السياسية لايؤثر فى تفاهم الشعوب وفى قضية السلام العالمى ، وبذا تنحت عن ضرورة تحقيق الثورة العالمية للقضاء على الرأسمالية الفردية . .

الفصل الثامن

الدعاية السياسية والأحزاب

الخطوة التالية فى دراسة الأحزاب هى الدعاية السياسية لها ولتفهمها يحسن أن نستطرد فى العرض ، والأحزاب السياسية كما سبق أن شرحنا على ألوان وأشكال عدة ، وهناك أحزاب الشعب والجماهير ورجالها من عامة الشعب ومن مختلف نواحى القرية والمدن ، وعادة مثل هذه الأحزاب يسارية الميول وأبرز مثل على ذلك الحزب الاشتراكى فى فرنسا . وهناك أحزاب اللجان وهى تعتمد على الشخصيات القوية ذات النفوذ فى ميدان الانتخاب كأعيان الريف والعصبيات والأثرياء والبارزين فى ميادين الأعمال الحرة مثل الحزب الراديكالى الاشتراكى فى فرنسا .

وهناك أحزاب تقوم على العاطفة والميول لأشخاص معينين ولا يمنع هذا من وجود برامج لها وقد تتفاوت البرامج إلى حد مثل الحزبين الديمقراطى والجمهورى فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وهناك أحزاب ينتخب زعماؤها ورؤساء لجانها فى جميع مراحل نظامها وهى تعقد المؤتمرات الدورية وتتشاور فيما تقره من برامج ونظم وتتخذ القرارات وفق النظام الديمقراطى مثال ذلك الحزب الراديكالى الاشتراكى والحزب الاشتراكى فى فرنسا .

وهناك أحزاب قادتها يقبضون على زمام سياستها دون انتخاب أو تشاور فى الرأى ولا تتغير الوجوه فيها وتتلقى اللجان الأوامر من السلطات الرئيسية فتنفذها دون تردد ويترتب على اختلاف وجهات النظر بين الزعماء والأنصار استقالة المعارضين وفصلهم كالحزب الشيوعى فى فرنسا ، وان كانت مثل هذه التصرفات من الناحية النظرية ومن الناحية التنظيمية تعتبر استثنائية إلا أنها من الناحية الواقعية والتطبيقية كثيرة الحدوث وهذا الحزب له قواعد لاتنفذ جلها فعلا ، وهذه الأحزاب الشيوعية تعتمد على قوة الدعاية ومركزية السلطة فى يد الهيئة الرئيسية وعلى ذمة منفذى نظام الحزب وأعضائه .

والدعوة السياسية تتخذ اللون الذى ينطبع به الحزب فى مختلف مراحله ابتداء من جنوده فى الرأى العام الذين يبثون الدعوة فى الشعب إلى الطبقات المثقفة التى تستمع إلى دعوة الحزب وإلى لجانهم واجتماعهم العامة وهكذا ... وتتبع الأحزاب مختلف

الوسائل فى سبيل الدعوة فمن بث الأفكار فى الرأى العام عن طريق دعاته وصحفه وخطبه إلى عقد اجتماعات دورية أو مؤتمرات عامة له إلى اشتداد ساعده بالخطابة والكتابة والإذاعة والنشرات والكتيبات أثناء الحملات الانتخابية .

ومن أهم مايهتم به قادة الأحزاب السياسية وخاصة فى البلدان الديمقراطية علاج عيوب النظم الحزبية وفى مقدمتها تطهير الأحزاب من الفساد وتنظيمها ورسم خطط الدعاية والحملات الانتخابية وفق أسس سليمة ، حتى لاتحيد الأحزاب عن الأغراض العادلة التى جاءت من أجلها وكسبت ثقة الناس على أساسها ، وفى مقدمتها تنظيم الدعاية والحملات الانتخابية .

وقد لجأ المشرع الفرنسى مثلا : قانون ٣٠ مارس سنة ١٩١٤ والمكمل بقانون ١٥ أكتوبر سنة ١٩٤٦ والمعدل بقانون ١ مايو سنة ١٩٥١ إلى تنظيم الحملة الانتخابية بضمان عدم المبالغة فى الإنفاق عليها والدعاية لمرشح الحزب ومحاولة اتخاذ وسائل غير مشروعة لتبرير ترشيحه ، لذا عمد المشرع الفرنسى إلى جعل الدعاية محدودة الأغراض ويتعين تحديد أماكن لصق الإعلانات وتنظيم توزيعها وقصر التوزيع على مرحلتين انتخابيتين وتشكيل لجنة تجتمع فى حرم المحكمة التى تدخل فى دائرة اختصاصها الدائرة الانتخابية يرأسها قاض لتعيين المطابع التى تطبع النشرات للدعاية والموافقة على صيغتها وغير ذلك من إجراءات الدعاية ، وجعل المشرع الدعاية تكاد تكون بلا أجر حتى لايستأثر الذى يدخل الحملة الانتخابية للنيابة عن الأمة بالكرسى نتيجة بذخه فى الانفاق على الحملة ، وتتحمل الخزينة نفقات الطبع والصاق الإعلانات والبريد والانتقال وتخصم من التأمين .

وحدد المشروع الإنجليزى نفقات الدعاية أيضاً وجعلها ٦ بنسات على الناخب فى الريف و ٥ فى المدن ونظم عملياتها واشترط أن يقوم بها شخص مسئول أمام السلطات يوافق المرشح عليه وهذه النفقات لسد أجور الانتقال والإعلانات للدعاية للمرشح.

ورأينا فى انتخابات مجلس الأمة فى مصر سنة ١٩٦٤ اهتمام السلطات بجعل الحملة الانتخابية جدية وبسيطة وبعيدة عن البذخ والتجريح بالمتنافسين من المرشحين.

والانضمام إلى الحزب يبدأ عن طريق الاقتناع بالعقيدة اقتناعا مصدره العاطفة والوجدان أما الاقتناع المنطقى والفنى فهو يأتى فيما بعد ، والدعاية من أهم أسباب هذا الاقتناع ، وان احكامها مع صدق الدعوة لجمع الأموال لصناديق الحزب واشتراكات الأعضاء من عوامل رواج الحزب وحسن استعداده لدخول المعركة الانتخابية وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية .

وفى نطاق كل حزب رأى عام يتفق مع مبادئه ونظ ياته وبرامجه ، ونشاطه وقواه وأمواله ورجاله تحت تصرفات ورهين تطورات الآراء والبرامج ، ويجمع أعضاء الحزب الواحد رأى مشترك أوفكرة تدور حول مايجب أن تكون عليه الدولة وكيف تساس وتدار المسائل الهامة وتعالج الضائقات وكيف تحدد علاقة الفرد بالمجموعة وبالسلطة الحاكمة وكيف تنظم المصالح المشتركة .

وكثيراً مانرى اتجاه الفرد اتجاها عاطفياً نحو فكرة الحزب دون أن يتعمق فى فلسفة هذه الفكرة فهو شيوعى لأنه يميل إلى إلغاء الرأسمالية الفردية فحسب ولكنه لايفهم بعمق معنى الشيوعية ولايعرف رجالها الذين وصفوا فلسفتها ، وهو يكتب على صفحات الجرائد وفى مجلات الحزب يدافع عن العقيدة دون أن يعرف عن ماركس ولينين إلا الإسم أو عنوان المقالات .

ويلاحظ فى التكوين الحزبى نتيجة الدعوة لكسب الأنصار أن يكون هناك انسجام بين طبقة معينة أو بين أبناء مهنة معينة ، ويتسابقون إلى الانخراط فى سلك حزب من الأحزاب وينضم كل حسب ميوله إلى حزب اليمين أو اليسار .

ويحسن أن تقود المصالح الحقيقية واشتراك كل فئة فى نوع منها والاتجاه نحو مثل عليا توحى بها النفوس والبطون والآمال فى مستقبل أحسن للمواطن إلى الميدان الصحيح ، علاوة على أثر العاطفة والميول والأحاسيس فى اتجاهات المواطن وماتعمله الدعاية الحقة فى هذا الحقل .

وقد تسيطر العاطفة إلى حد التعصب الأعمى لفكرة حزبية دون دليل من المنطق عليها مثال ذلك موقف البيض من السود فى الولايات المتحدة الأمريكية فالمسألة عاطفية تعصبية محضة ولاتختلف الديمقراطية هناك أوبرامج الأحزاب فى صددها ، غير أن حدتها بدأت تضعف أخيراً وعملت قوانين سنة ١٩٦٤ هناك على محاولة القضاء على التفرقة العنصرية يضاف إلى ذلك قوة الدعاية فى الجماهير لاحترام حقوق الإنسان والمواطن الأمريكى ، ومراعاة الدستور الاتحادى القائم على الحريات والمساواة بين الناس .

وكذلك الحال فى الميل إلى تدخل الكنيسة أوالوقوف فى وجهها فقد ينضم المواطن هناك إلى الحزب لمجرد أنه لايميل إلى تدخل الكنيسة فى السياسة ويصبح من أنصار اليسار ولايهمه من البرنامج الحزبى غير موقفه هذا ، وقد يميل بكل جوارحه إلى الكنيسة فينضم إلى حزب اليمين الرجعى لتعلقه بالكنيسة دون أى اعتبار آخر وتؤثر دعوة الكنيسة فى الجماعات الريفية وتكسب الأنصار بينها .

الفصل التاسع

النقابات

النقابات صورة من صور الرأى العام ووجه من وجوهه ولها أهميتها لأنها تضم الطبقة العاملة وهى سواد الشعب وهى مرتع خصيب للدعاية بين أعضائها وهم سواد الأمة وعمادها فهم غالبيتها ، كما أنهم قوة جارفة فى تأييدهم فكرة معينة عن طريق الدعاية لها ، والنقابات جميعاً غرضها الأساسى مساعدة العمال ماديا ومعنويا فهى تعمل للدفاع عن حقوقهم تجاه أصحاب رؤوس الأموال ورجال الصناعة ، وتتدخل لدى السلطات لإصدار التشريعات لحماية العامل وتحديد الأجور وساعات العمل وأوقات الراحة وضمان معاش للعامل وتعويضه عما يلحقه من ضرر بسبب العمل ومايتبع ذلك من حوادث وإصابات العمل دون الحاجة إلى إقامته الدليل القاطع على خطأ صاحب المصنع أو تعمد إصابته .

وهى تساوم وتفاوض وتتدخل لدى الجهات المختصة لكى تجعل من حقوق العامل خدمات للإنتاج ونوع من التعاون بينه وبين صاحب رأس المال وليس سخرة ومصدر ذلة للعامل وتحكم فيه ، وكى تصبح مطالب العمال فيما يختص بالأجور وساعات العمل والراحة والتعويض وفقد العمل حقوقاً طبيعية وليست منحاً يغدقها رب العمل على العامل يتعين تنظيم النقابات وتطهيرها من دعوة الفساد وبث القوة فيها حتى تستطيع أن تباشر مهمتها الاجتماعية والسياسية إلى أن تصير قوة للضغط على الرأى العام والحكومة فى حدود مشروعة ، وهى تقوم بانشاء صناديق إعانات وسلف للعمال وتأمينات لهم تجاه التعطل عن العمل والمرض والعجز والشيخوخة والوفاة ، ولم تقم النقابات فى تكوينها الحالى بين يوم وليلة ولكن جاهد العمال طويلا فى سبيل تكوين نقاباتهم هذه ، وأصبحت لها قوة ورأى يؤثران فى اتجاه الشعب ويهزان الحكومات وقد يطوحان بها ، ويكفى أن نذكر بعض أنواع الصراع التى قامت بها النقابات فى القرن الماضى قبل أن يعترف القانون بحقوقها فإنها من العوامل التى أدت إلى نجاح ثورات منتصف القرن الماضى وتحقيق الحكومات فى ذلك الوقت لمطالب الشعب فى الانتخاب المباشر وهدم النصاب المالى ، وان قوة العامل فى جماعات سياسية معينة وحشوده التى نتجت عن الانقلاب الصناعى وعن استخدام العمال بالملايين فى المصانع هى التى أثرت فى تيارات الرأى العام

بل هى تيار أساسى من تيارات الرأى العام يعتد به ، وذلك فى سبيل تحقيق ما يأتى :

١ – تحول تشريعات العمل إلى الاعتراف باصابة العمل بمجرد وقوعها وليس على العامل أن يقيم الدليل على أن رب العمل هو المسئول ، وظلت القوانين مدة طويلة حتى مطلع القرن الحالى فيما يختص باصابة العمل تلزم العامل حتى يحصل على التعويض أن يأتى بالدليل القاطع على أن اصابته نتجت عن خطأ رب العمل ، وأنه أصيب أثناء العمل وبسبب العمل .

٢ – ان تيارت الرأى العام فى الجماعات السياسية للعمال هى التى حمت المرأة والطفل فى المصنع وهى التى أجبرت الحكومات على أن تشرع لصالح العمال وأن تهتم بالشئون الاقتصادية للجماعات وعلى أن تعمل على توفير الأعمال للطبقات الكادحة ، وألا تترك الأمر لمجرد العرض والطلب ، ومن الأمثلة على قوة الجماعات السياسية للعمال دستور الجمهورية الفرنسية الثانية الذى جاء فى أعقاب ثورة سنة ١٨٤٨ فى باريس والتطويح بعرش لويس فيليب ، ثم ماقامت به حكومة الجمهورية الثانية من تجارب أطلق عليها تجارب المصانع الوطنية أو الورش الأهلية **Les ateliers nationaux** لتشغيل أكبر عدد من العمال فيها على أن تتبع هذه الورش الحكومة .

٣ – ومن أبرز الأمثلة على قوة الجماعات السياسية للعمال انتصار تيار الرأى العام فى ثورات منتصف القرن الماضى لتحطيم النصاب المالى للناخب وأن يكون الانتخاب بلا قيود مالية وعلى درجة واحدة .

٤ – كما أن من أبرز الأمثلة على أهمية الرأى العام للعمال وقوته وحزم جماعات العمال ومكانتهم السياسية ما وصل إليه العالم بعد الحرب العالمية الأولى من إنشاء مكتب العمل الدولى الذى تحول إلى هيئة العمل الدولية وذلك لدراسة مشكلات العمل والعمال وإصدار نشرات دورية بها ولتنسيق تشريعات العمل بين الدول ولمحاولة تحديد أجور دنيا للعمال وتحديد ساعات العمل وسا ئر ما يتناول صالح العمال والأمثلة على ذلك لا تحصى لتبين إلى أى حد بلغت قوة الجماعة السياسية للعمال نتيجة اشتغال ملايين من البشر فى المصانع التى تدار بالبخار ثم بالكهرباء .

وتعدى نشاط النقابات الناحية الاقتصادية والإنسانية إلى الناحية السياسية وذلك لأن نظام النقابات يقوم على فكرة وخطة وسياسة عمالية معينة تبعاً لاحتشاد آلاف العمال فى المصانع ولانضمامهم إلى النقابات وتكوينهم جبهة قوية مرهوبة الجانب ولها أثرها فى مركز الحكومة والحكم . ويصل بعض رجال الاشتراكية العلمية إلى حد القول بأن مال الدولة إلى الزوال فهى عجلة لالزوم لها فى العربة السياسية وأن تنظيم أحوال الناس سيكون بواسطة

النقابات التى ستقوم مقام الدولة وتوزع الأعمال والاختصاصات والمنتجات على الأفرد وقد أصبحوا عمالا فى شتى المصانع والحقول الجماعية وقد تحولت الرأسمالية من فردية إلى جماعية وصارت ملكاً للمجموع أسوة بأدوات الانتاج .

غير أن فى هذا القول مبالغة وهو كلام مردود عليه فى أن الدولة التى تنبأ رجال الاشتراكية بزوالها وبث الدعوة عن طريق الرأى العام العمالى المتطرف بأنها ستقضى حتما هى اليوم أقوى منها فى أى وقت مضى وخاصة فى البلدان الشيوعية ، وهى الطابع الذى تتميز به شخصيات الشعوب رغم انتشار شتى المبادىء الاشتراكية بأنواعها المختلفة فى العالم وأن السياسات الاشتراكية على اختلافها هى المنهج الذى تسلكه الحكومات اليـــوم .

واتخذ بعض أنصار الفكرة النقابية وعلى رأسهم جورج سوريل Georges Sorel قوة من آلاف العمال كسلاح ماض لتنفيذ مطالب العمال عن طريق الاضراب وقد زعموا أنه يتعذر التفاهم بين العمال وأصحاب رؤوس الأموال والحكومة ، وكافحت النقابات طويلا فى سبيل انتزاع حقوق العمال من ذوى الشأن من رجال المال والأعمال ومن السلطات التى تتردد فى إجابة مطالبها .

غير أننا نرى اليوم فى البلدان الغربية الصناعية وقد تطورت الصناعات وأخذت تهدد بهبوط حشود العمال مستقبلا نتيجة استخدام الآلات التلقائية **Automation** أى نتيجة السياسة الصناعية التلقائية ونتيجة سيطرة الماكينات الالكترونية والعقل الآلى على إدارة المصانع ، ان البروليتاريا بدعوتها فى تقلص وضعف مستمر وأن حشود العمال الذين ينعتون « بالبروليتاريا » وكانوا يعتبرون مصدر متاعب وقوة آمرة للحكومات سيبدأ قريباً عددهم فى النزول ونجمهم فى الأفول فى أعمال المشاغبة فى الغرب .

وسارت قوة النقابات العمالية فى شتى البلدان الغربية وقد ازدهر الإنتاج فيها اليوم وخفت مشكلات العمال بسرعة الاستجابة إلى مطالبهم فى زيادة الأجور وتحقيق العدالة الاجتماعية على أعلى مستوى لا فى سبيل الصراع وإشاعة الفوضى وإنما لمحاولة التقارب وحسن التفاهم بين شتى الفئات التى تعمل فى سبيل البناء وزيادة الرخاء فى الدولة ، وأصبحت السياسة الجديدة للصناعة التى توجه الجماعات مستقبلا إلى الزراعة ثم ما يعيش فيه العالم الرأسمالى الغربى اليوم من انتعاش ورخاء اقتصادى تدعمه السوق الأوروبية المشتركة لاتدع محلا لتذمر العمال وإشاعتهم الفوضى أو اتخاذهم العنف لتحقيق مطالبهم .

وسبق أن مرت النقابات فى مفاوز ضيقة شائكة من سياسات العنف والاضطراب واتخذت وسائل سلبية وإيجابية لتحقيق مطالبها فى كفاحها المرير منذ نشأتها فى منتصف

القرن الماضى لانتزاع حقوقها من أرباب الأعمال وأصحاب رؤوس الأموال ، وفيما يلى البيان : —

١ — السياسة السلبية :

أهم وسائل السياسة السلبية المقاطعة والتوقف عن العمل والاعتصام بالمصانع ورفض اخلائها مع عدم أداء أى عمل من الأعمال أو مباشرة بعض الأعمال ببطء واضراب العمال ، وتنظم النقابات هذه العمليات كما تنادى بها وتباشرها بطريقة مباشرة ، وقد يصل الاضراب إلى أقصاه ويصبح اضراباً عاماً فى الموانى والمطارات والشحن والتفريغ وقيادة الطائرات وسائر وسائل النقل والمرافق العامة كالإضاءة وتوزيع المياه والأغذية على المنازل فى المدن وإدارة الأسواق وهى وسائل كريهة وتؤدى فى النهاية إلى عكس المقصود منها ، إذ علاوة على أنها ضد مصالح الوطن فهى تشل أداة الدولة وتفقد الإنتاج الملايين نتيجة التعطل عن العمل بقصد إجابة المطالب ، وقد يفقد العمال عطف الشعب ورعاية الرأى العام لقضية العمال إذا بولغ فيها ، إذ أن هذه الطريقة تشل أداة الحكومة كما ذكرنا ، وتضطرب بناء عليها الأحوال الاقتصادية والاجتماعية وتتهدد البلاد بالجوع والفوضى مما لا يرضى الفريق الذى يمثل الآراء المتزنة فى البلاد وغالباً لا يرضى هذا الوضع طبقات الزراع .

وقد تتهدد الحياة السياسية للبلاد نتيجة الفوضى وقد نرى الوزارات وقد أخذها الهلع والذعر تسارع إلى التسليم بمطالب العمال جملة ، وقد لا تكون كل المطالب مما يقبله الصالح الاقتصادى ، ويترتب على هذا استمرار غلاء المعيشة والإقبال على أزمة اقتصادية وتستمر الحالة من سيىء إلى أسوأ نتيجة استمرار بعد الهوة بين الأجور والأسعار مما يجعل الإضراب مرضاً مزمناً ، والحكومة فى هذه الحالة تبدأ بالتهديد واتخاذ خطوات عنيفة جريئة بمعونة قوات الجيش لمواصلة سير الحياة فى شرايين البلاد وسير المواصلات وتموين المدن وإضاءتها وتوصيل المياه إلى المنازل وإدارة الأسواق حتى لا تنتشر الأوبئة وحتى لا تضرب المجاعات أطنابها فى العواصم ويصيد تجار الأغذية وسائر قراصنة السوق السوداء فى الماء العكر .. الخ .

وحق الاضراب هذا ظل مدة غير معترف به فى القوانين وحاربت الحكومات بشدة هذه الفكرة وسالت أقلام كتاب المذاهب الاقتصادية والأفكار السياسية فى شرحه وبيان ضرورة اللجوء إليه أومضاره ، ومن دعاة حق الاضراب المفكر الاقتصادى جورج سوريل وخاصة فى مؤلفه بعنوان « تأملات فى سياسة العنف » Reflexions sur la Violence ولكنه أصبح نتيجة الأوضاع الدستورية فى البلدان الغربية وبتأثير قوة العمال ونقاباتهم من الوسائل المشروعة التى يسلكها العمال فى بلدان الغرب الرأسمالية ، وغير أن بعض التشريعات محافظة على الأمن والنظام وسلامة الدولة تحرمه وتفرض العقوبة على مرتكبيه .

٢ـ السياسة الإيجابية :

من الوسائل الايجابية كوسيلة للجماعات العمالية فى نهجها السياسى للوصول إلى أغراضها التظاهر واحتلال المصانع ومباشرة الأعمال فيها قصرا لاكتساب العمل فيها واغتصابه لصالح العمال فى رأس المال الفردى ، وقد تصل الأعمال الايجابية إلى العنف والتحطيم والتخريب ، وهذه السياسة المدمرة لا تأتى إلامن الفوضويين ومن فى حكمهم الذين لا يعترفون بنظام أو قانون ويطالبون بإلغاء الدولة إلغاء تاماً وأن تسير الإنسانية وفق الطبيعة التى ينبع منها القانون ، ولكن هذه السياسة الفوضوية بما أدت إليه من إراقة الدماء وارتكاب شتى حوادث الاغتيال الغادر وتخريب المواصلات ودور البريد ومحطات السكك الحديدية والمبانى يترتب عليها بلا شك فى النهاية انطلاق الغرائز الإنسانية والقسوة والوحشية وتسلط أشد الناس عنفاً وإجراماً على بقية الناس مما تعافه المدنية الحديثة .

وكانت أسبانيا والبرتغال وفرنسا وإيطاليا وسويسرا منذ أواخر القرن الماضى حتى مطلع قرننا الحالى مسرحا لأعمال الإرهاب وتعددت حوادث الفوضويين ومنها أن قتل الفوضويون الملوك والساسة ورجال الحكم ، نذكر منها مصرع الرئيس كارنو Carnot رئيس الجمهورية الفرنسية والامبراطورة اليزابث زوجة امبراطور النمسا على بحيرة لمان ، وملك إيطاليا ألبرت ومقتل الأسرة المالكة البرتغالية ومحاولة الاعتداء على حياة الملك الفونس الثالث عشر ملك أسبانيا .

والفكرة السياسية النقابية للانارشيين أى الفوضويين مزيج من الاشتراكية الثورية والفوضوية ، فمن الأولى يستمد أنصار النقابات فكرة فائض القيمة وكفاح الطبقات ويحاولون بناء على هذه الحجة انتزاع قسط من أصحاب رؤوس الأموال ، ومن الثانية يستمدون فكرة الفردية إلى أقصى الحدود ووجوب زوال الدولة والنظم السياسية القائمة واتباع أساليب الإرهاب والوصول إلى تحطيم القانون ، غير أن فكرتهم هذه ضعفت وهى فى طريق الزوال نظرياً وعمليا ، ويتجه العمال عادة اليوم إلى الأحزاب ليربطوا عجلتهم بالحزب السياسى الذى يعطف عليهم وعن طريق هذا الحزب يطالبون بحقوقهم .

والرأى العام تبلور وتركز بعد عواصف مختلفة واتخذ تياراً معيناً منتظماً هو الاتجاه إلى الحزب ومن الحزب إلى البرلمان كما نرى ذلك فى الديمقراطيات الغربية وفى انجلترا بنوع خاص ، ولم تعد هناك مذاهب سياسية نقابية كما كان الحال فى القرن الماضى ، وتنفيذ أغراض النقابات وما تعرضه من آراء تطرح على الرأى العام عن طريق البرلمان ، وبدأت الحركات النقابية واتسع نطاقها فى فرنسا فى القرن الماضى بواسطة اشتراكيتها ، وفرضت على البلدان الكبرى وامتدت إلى أسبانيا وإيطاليا والولايات المتحدة الأمريكية

وانجلترا ، ثم أفل نجمها وانصرف المتطرفون وهم قلة إلى الشيوعية وقدعدلوا عن الفوضوية ؛ كما ضعفت حركة البروليتاريا ودكتاتورية العمال بالاتجاهات الحديثة فى عالم الصناعة واحتمال الهبوط التدريجى لحشود العمال نتيجة بدء استخدام سياسة الآلات التلقائية Automation وما فى حكمها فى العالم الغربى ، وكذلك نتيجة ارتفاع مستوى معيشة سواد الشعب وتوفير الأعمال اه .

وكان يرى أنصار الفكرة النقابية فى بادىء الأمر أن أحزاب العمال لا تراعى حقوق العمال بقدر ما ترعاها النقابات ولذلك كانوا يفضلون ألا يتعاونوا مع هذه الأحزاب وأن يستغلوا جهودهم لصالح العمال ، وكانوا لا يؤمنون بالنظم البرلمانية والأحزاب الدستورية وكان فى اعتبارهم أنها لا تؤدى إلى خدمة العمال ويرون أن يقوموا بعمل مباشر فى سبيل انتصار الفكرة العمالية وإحلال النقابات محل الحكومة القائمة ، ولكن فقدت الحركة النقابية من الناحية السياسية أهميتها منذ الحرب العالمية الأولى وقد تغلبت فكرة الدفاع عن الوطن وعن أرض البلاد وعن الدولة التى تمثل قومية وسيادة معينة على أى فكرة أخرى وخاصة على أفكار العنف التى تقوم عليها الفكرة النقابية وحلت محل النقابات أحزاب العمال التى انضم إليها كثير من النقابات وانخرط فى سلكها العمال وخاصة رؤوسهم .

كما ظهرت الدول الشيوعية فى روسيا وغيرها لتعطى صورة للاشتراكية العلمية من الناحية العملية وكيف أنها تقوم على أساس الدولة مما صرف المتطرفين عن صراع الفوضوية

ولم تظهر عندنا فلسفة نقابية كما شوهد فى أوربا بل قامت نقابات عدة لبعض عمال المدن كعمال النقل والغزل والنسيج للدفاع عن مصالحهم ؛ وظلت الحكومات تطاردها مدة ولا تعترف بها رسمياً ولا بحقوق لها ، ثم أخذت ترخى العنان لها شيئاً فشيئاً ولوحظ نشاطها فى مطالبة الشركات بحقوق أعضائها وفى إلحافها على الحكومات للتدخل لفض المنازعات بين العمال وأصحاب رؤوس الأموال ، ولكن لم يبلغ نشاطها إلى حد الفلسفة الثورية والصراع المذهبى الذى لاضرورة له وخاصة أن الدولة عندنا قد استجابت إلى اتجاهات الرأى العام وإلى شعور الطبقات العاملة فى إقامة مجتمع على أساس اشتراكى يعمل المواطن فيه كخلية فى الدولة ويتقاضى على قدر كفايته وعمله ، كما أشرفت الدولة بمختلف الوسائل على الإنتاج والتصنيع وشتى مؤسسات ومشروعات الإنتاج ، ثم بالتبعية على العمل وأجر العامل وتوجيه العمل والعمال ، وهى فى هذه الحالة تحدد الأجور وتجزى المجد وتضمن الكسب للعامل كما تقيم تعاوناً بين العمل ورأس المال ، وفى هذه الحالة لا تقوم مشاكل على نسق مشاكل العمال وأزمات الأحزاب ومطالب العمال ،

ولا تفاوت بين الأجور والأسعار يؤدى إلى تذمر وقلق واضطراب ، وما يتبع ذلك من أفكار فوضوية أو غيرها كما رأينا فى الخارج .

والنقابات صورة من صور الرأى العام ودعوتها شديدة بين صفوفه ، وهى صورة شعبية لأنها تمثل قوة لا يستهان بها هى قوة الإنتاج المباشر الذى يوجهه رب العمل سواء كان الدولة أوالفرد ، والدعوة هذه بين الرأى العام هى الحافز إلى تدريب وتثقيف وتطور جهود الكادح والمبتدع والمفكر وصاحب الكفاح المذهبى الذى ينادى بالنظام الرأسمالى على أساس الديمقراطية الغربية أوبنظام اشتراكى على أساس الاشتراكية العلمية أو بالنظام الرأسمالى غير الاستغلالى على أساس الاشتراكية العربية وذلك وفق الحياة السياسية والاجتماعية الديناميكية الدائمة الحركة وحاجات ومطالب سواد الشعب ، وهذه الصورة تمثل احتياجات الشعب وأمانيه وما ينشده فى قادته وحكامه وطموحه إلى مستقبل أسعد .

والرأى العام الذى يتمثل فى وعى هذه النقابات وتعبيرها عن رغبات أعضائها قوة يعتد بها فى توجيه الشعب وفى تعاون مختلف القوى المنتجة فى الشعب سواء كان هذا الانتاج مادى أو معنوى وفى إدراك الحاكم حاجات المحكوم ومدى استجابة المحكوم لتوجيه الحاكم .

والنقابات تعبر عن آرائها فى اجتماعاتها المنتظمة وفى قراراتها وفيما ترفعه من مطالب إلى الجهات المسئولة وإلى أصحاب المصانع وأصحاب المشروعات وفى صحفها التى لا يستهان بها تبعاً لقوة هذه النقابات المستمدة من اشتراكات العمال فيها ، كما أنهابتكتل أعضائها وباتحادات النقابات وبمثابرتها فى مطالبها وإلحافها فى الدفاع عن مصالح أعضائها تكون قوة دعاية لا يستهان بها فى زيادة وعى الطبقات العاملة وفى إعداد الرأى العام لتقبل هذه المطالب وضمه إلى صفوف العمال وهم جزء لا يستهان به من الرأى العام .

كما تعبر النقابات عن آرائها لدى الأحزاب السياسية التى تنتمى إلى هذه النقابات أو تنتمى هذه النقابات إليها ويدور صراع مسرحه الرأى العام بين هذه النقابات وصحفها وسائر الأحزاب المعتداة واليمنية بمناسبة قضايا رأس المال والعمل ، ثم تعبر الأحزاب عن الرأى العام فى البرلمان ، وهذه النقابات إذا كانت خلاياها الأيدى العاملة التى تنخرط فى سلكها فإن تنظيمها وقيادة الفكر فيها للخلاصة الواعية « والانتلجنزيا » Elite-Entelligenzia أو الصفوة الواعية من العمال إذ يتعين أن يقود سياسة النقابات مستوى معين للفكر لا مجرد أيدى عاملة لا تحكم إلاعلى سواعد مفتولة وحركات آلية تسير بمقتضاها الأعمال دون أن يكون هناك تفكير عميق فى مطالب العمال وأمانيهم وموقفهم من سائر اتجاهات الرأى العام ومن الحكومة ، وهذه الصفوة هى التى تحبك الخطط بتنظيم الدعاية لكسب الرأى العام لصالح النقابات والعمال ومطالبهم وإقناع رجال الفكر والسياسة والحكم .

الفصل العاشر

الجمعيات التعاونية

الجمعيات التعاونية تمثل ناحية من نواحى الرأى العام واتجاهاً فى الجماهير إذ ينضم إليها عدد لا يستهان به من صغار المنتجين والزراع والصناع والمستهلكين وهى فكرة من أفكار الاقتصاد تمثل مذهباً اشتراكياً معتدلا ليحول دون الانزلاق إلى الشيوعية .

وجمعية التعاون غرضها مساعدة صغار المنتجين من زراع وصناع وأرباب المهن وكذلك المستهلكين عن طريق اتحادهم وتآزرهم لمكافحة جشع رؤوس الأموال الضخمة ولتقف فى وجه تيار الاحتكارات والمشروعات الكبيرة ليتمكن صغار المنتجين والطبقات الوسطى من الكسب والحصول على حاجاتهم بواسطة التعاون ، فعملها فى هذه الحالة ونشاطها قاصر على أعضائها وينظم هذا النشاط تشريع خاص تشرف الحكومة على تطبيقه ، كما أن الحكومة لا تتوانى فى مساعدة هذه الجمعيات بالمال وبالمعونة المادية عن طريق القرض أو المعونة الأدبية عن طريق إرشاد أعضائها ورقابة أعمالهم ونشر مجلات دورية لتشجيع الجمعيات التعاونية وإصدار البيانات الاحصائية الخاصة بنشاط الجمعيات وميزانياتها وذلك حتى يحقق الأعضاء المزايا المرجوة من التعاون .

ولا يرمى النظام التعاونى إلى تحقيق الثراء والمال الواسع للأعضاء أسوة بالشركات بل يساعد العضو على تصريف منتجاته أو الحصول على حاجاته ، ولما كانت جهود الجمعيات التعاونية محصورة فى نطاق الأعضاء فهى والحالة هذه لا تتعامل مع الجمهور بلا تمييز وبوجه عام ومعاملاتها بسبب خدمة الأعضاء وإلا يصبح عملها مثل عمل الشركات تماماً ولا يصبح لها أى حق فى التمتع بالمزايا التى ينص عليها التشريع التعاونى وفى مقدمتها الإعفاء من الضرائب والحصول على قروض من الدولة للنهوض بالجمعية التعاونية بدون أرباح أو بارباح زهيدة ويطبق عليها قانون الشركات وتعامل معاملتها فى تحصيل الضريبة .

والنظام التعاونى سد منيع يقف فى وجه جشع الشركات الكبرى والاحتكارات من ناحية واحتمال انحدار صغار المنتجين والمستهلكين إلى الشيوعية من ناحية أخرى إذيرشدهم إلى طريقة مثلى للكسب وتبادل المنافع بينهم دون الوقوع فى حبائل شركات الاحتكارات

أو الامتيازات أو فى شراك الشيوعية ، ويستخدم أعضاء جمعيات التعاون ما يجمعونه من كسب فى المضى فى جهادهم الاقتصادى وتنمية موارد جمعياتهم التعاونية ويصبح هذا النظام خير مدرب على التآزر والتآلف بين الناس فى سبيل تبادل المنافع والخدمات ، وعلى رفع المستوى المادى والمعنوى للفرد بمعونة الدولة المالية وبما تقدمه من قروض عن طريق البنوك التعاونية بأرباح زهيدة فى كنف نظام رأسمالى إنشائى .

وتنتشر هذه الجمعيات فى بلدان الشمال وإيرلندا وفرنسا فضلا عن العالم الجديد ، ونشاطها ملحوظ فى ميدان الزراعة بما تقوم به من خدمات لأعضائها فى الحصول على الأسمدة والبذور فى زراعة حقولهم على أساس تعاونى وفى حفظ محصولاتهم فى مخازن حديثة معدة لهذا الغرض تديرها البنوك التعاونية .

وهكذا يمكنهم دون الاضطرار إلى بيعها فى وقت الكساد الحصول على قروض بضمانها وبضمان الجمعيات مجموعة المحاصيل المودعة ، وهى تبيع للأعضاء الأسمدة والتقاوى بأسعار معتدلة وتقدم لهم الآلات الحديثة للحرث وسائر الخدمات الخاصة للأعمال الزراعية .

وهناك أيضاً الجمعيات الصناعية وخاصة جمعيات الصناعات الزراعية وهى تباشر تحويل المنتجات الزراعية إلى مواد غذائية للاستهلاك المباشر ، مثال ذلك جمعيات استخراج النبيذ من العنب فى فرنسا وجمعيات مستخرجات الألبان وخاصة صناعة الجبن والزبد وجمعيات الفواكه المجففة .

وهناك جمعيات التعاون للإنتاج وهى تضم إليها صغار الصناع يتحدون فى إنتاج سلعة معينة ويترتب على ذلك تخفيض نفقات صناعاتها واستطاعتهم بتآزرهم تصريفها بسرعة وسهولة ، علاوة على ذلك يمكنهم الحصول على سلف صناعية بضمان جمعية التعاون ، وبما لديها من آلات وبضائع .

كما قد تتكون من صغار الزراع وهم يستطيعون الحصول على الأسمدة والبذور كما سبق أن بينا بسعر أقل من السعر القطاعى فى السوق ، ويمكن التعاون فى شراء الآلات الزراعية الحديثة والاتحاد فى استخدامها استخداماً جماعياً لإصلاح أراضيهم مما يوفر بعض نفقات إنتاجهم ، ويستطيعون تصريف حاصلاتهم بسهولة عن طريق جمعيات التعاون التى تقوم بنقلها بسرعة ودون كبير عناء أو تكاليف باهظة إلى جهات توزيعها واستهلاكها ، كما تقوم بالبحث عن الأسواق الملائمة وبتوزيع أرباح هذه الجمعيات بنسبة ربح بسيط محدود على أسهم الاشتراك ، ثم ما يتبقى بعد ذلك من الأرباح قسط كبير وهو أهمها يوزع على الأعضاء بنسبة معاملاتهم مع الجمعية ، فيزيد ربح العضو كلما زاد تعاونه معها

ونشاطه فى مساعدتها بإستخدام آلاتها أوتقديم خدمات إليها ، وهى تعامل معاملة تختلف كما سبق أن ذكرنا عن معاملة الشركات فى تحصيل الضرائب منها وتعفى من قسط كبير منها .

وهناك جمعيات التعاون للاستهلاك ، وهى تستخدم رأسمالها فى شراء مختلف مواد الاستهلاك كمواد الوقود والملابس والعطور والأغذية بالجملة لتوزيعها على الأعضاء بسعر أعلى قليلا من سعر الجملة ، ولكنه أقل بمراحل من سعر القطاعى وهى عادة منتشرة فى الريف حيث يصعب الحصول على الحاجات المنزلية وكان التجار يستغلون بعد الشقه بين المدينة والقرية حيث يصعب الحصول على الحاجات المنزلية فى القرية للمبالغة فى الربح ، مما حدا إلى معالجة الحال بإنشاء الجمعيات التعاونية الاستهلاكية ، وهى أيضاً تتمتع بإمتيازات خاصة بوفاء الضرائب ، وتوزع أرباح الجمعية على الأعضاء بنسبة مشترواتهم السنوية وخدماتهم .

وهناك جمعيات التعاون للتسليف ، وأعضاء هذه الجمعيات عادة صغار الزراع أو التجار أو الصناع أو رجال الحرف ، ويكونون باتحادهم مصرفاً صغيراً أو صندوقاً لإجابة طلباتهم الضرورية ، من الأموال التى تسير دولاب أعمالهم لمدهم سريعاً بالقروض إذ يصعب عليهم نظراً لصغر رؤوس أموالهم وتعذر تقديمهم الضمانات الكافية للمصارف الكبرى حتى تعطيهم حاجاتهم من القروض وخوفاً من ارهاقهم بشروط قاسية أن يحصلوا على المال سريعاً فى السوق ، ويستخدم رأس مال الجمعية فى إقراض الأعضاء المعسرين ويمكن للجمعية بما لها من سمعة طيبة أن تضم إليها حاصلات الأعضاء أو مصنوعاتهم المودعة ضماناً للقروض ثم تلجأ إلى المصارف للحصول على المال اللازم لسير دولاب أعمالهم ، وتوزع أرباح الجمعية على الأعضاء بنسبة ما يعقدونه معها من سلف ومقدارها وأهميتها .

وانتشرت جمعيات التعاون انتشاراً كبيراً فى القرى لا سيما فى بلدان الشمال حيث ساهمت مساهمة فعالة فى نجاح الزراعة وتقدمها الفنى وفى نجاح مختلف الصناعات الزراعية ، كما أنها انتشرت فى فرنسا وفى شرق أوربا أخيراً ، وساهمت جمعيات التعاون الزراعى فى تخزين الحبوب والنبيذ وسائر الحاصلات التى يمتلكها أعضاء الجمعية وذلك لإمكان الاقتراض عليها ولتسهيل إقراض الجمعيات بضمان هذه الحاصلات وحتى لا يضطر الزراع لبيعها أيام الكساد وانخفاض الأسعار ، وأصدرت الدول الغربية قوانين لتشجيع التعاون ، وأعفت كما سبق أن ذكرنا الجمعيات التعاونية من كثير من الضرائب أو خففتها عنها كما قدمت لها المساعدات والقروض بأرباح زهيدة ، وفرضت الرقابة عليها حتى تضمن نجاحها وعممتها لصالح صغار الزراع والمنتجين والطبقات العاملة ، وضاعفت

عنايتها بها كلما ازدهرت هذه الجمعيات ، وكلما سارت الدول نحو الديمقراطية مع الاشتراكية نشطت محاربتها للاستغلال ولرؤوس الأموال الضخمة والاحتكار .

والجمعيات التعاونية هذه قوة تمثل الرأى العام لصغار المنتجين والمستهلكين ، وقوة دعوتها شديدة ضد الاحتكار وتحسب الحكومات لها ألف حساب فى الاستجابة إلى صيحات الأعضاء كلما ظهر شبح الاستغلال وجشع الرأسمالية الضخمة الذى يهدد كسب أعضائها ونجاح مشروعاتهم .

واتجهت الأفكار فى مصر إلى إنشاء الجمعيات التعاونية منذ أوائل القرن الحالى حينما لفحت الأزمة المالية الريف والمدن بنارها وهبطت الأسعار وانحدرت أثمان الأراضى وتعذر على صغار الزراع الالتجاء إلى البنوك وقد كفت يدها عن الاقراض فضلا عن خطورة الالتجاء إلى المرابين ، وقام سنة ١٩٠٨ أحد كبار المحامين « عمر بك لطفى » يدعو للتعاون ، ورأس الحركة فى ذلك الحين الأمير حسين كامل كرئيس للجمعية التعاونية ، وشكلت لجنة استعانت بآراء كبار رجال التعاون فى الخارج ، غير أن الحكومة بضغط من الاستعمار والاحتلال لم تشجع الحركة وما لبثت أن خمدت ، ولكن كان من نتائج الحركة الوطنية سنة ١٩١٩ أن فكرت الحكومة جدياً فى تشجيع التعاون فى البلاد فأصدرت وزارة زغلول سنة ١٩٢٣ قانون التعاون الزراعى يعترف بجمعيات التعاون باسم شركات التعاون وتعدل القانون فى سنة ١٩٢٧ ثم سنة ١٩٤٤ وهو ينظم التعاون بوجه عام دون قصره على الزراعة ، وأطلق على مؤسسات التعاون الجمعيات التعاونية ، وفرق المشرع بينها وبين الشركات التى غرضها الربح ، ونشأت إدارة حكومية خاصة لتنظيم الحركة التعاونية ولتسجيل جمعيات التعاون ورقابة ميزانيتها والدعاية للتعاون ونشر البيانات الإحصائية التعاونية .

وحتم المشرع أن تنصب أعمال الجمعيات التعاونية على خدمة أفرادها وقالت « المادة ٢٠ » من قانون التعاون بالضبط « لا يجوز أن تتناول أعمال هذه الجمعيات مصالح أفراد غير أعضائها » .

وانتشر التعاون فى مصر انتشاراً كبيراً كما حبته الثورة منذ سنة ١٩٥٢ بعنايتها وأقامت صرح اقتصاديات البلاد فى ميادين الزراعة والصناعة والتجارة على أسس نشاط الجماعة وتعاونها وتآزرها فى ظل النظام التعاونى ، وذلك تحقيقاً لمبدأين من مبادىء الثورة الستة التى جاءت فى الميثاق الوطنى الذى قدمه الرئيس جمال عبد الناصر فى الجلسة الافتتاحية للمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية فى ٢١ مايو سنة ١٩٦٢ وهما القضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم وعلى استغلال رأس المال مع إقامة العدالة الاجتماعية ، وطبيعى أن يتطلب هذا الجهد بناء صرح البلاد الاقتصادى على أساس التعاون والنظام الجماعى .

وما يهمنا أيضاً فى دراسة التعاون بعد أن فهمنا فى عجالة أغراض جمعيات التعاون وأهدافها هو صلة التعاون بالحياة السياسية وأثره فى الرأى العام وفيما يلى البيان :

١ — صلة التعاون بالحياة السياسية :

فيما يختص بصلة التعاون بالحياة السياسية ونشاطها والانتخاب والتمثيل النيابى وتقلد زمام الحكم نذكر أن التعاون سياسة اقتصادية من صناعة اشتراكيي المثل العليا والاشتراكية الإنسانية لأوائل القرن الماضى ، ورسموا إنشاء جمعيات التعاون لبناء التعاون بين الثروات والمشروعات الخاصة ، كما راجت الدعوة بإعتبارها دعوة سياسية اقتصادية فى انجلترا من سنة ١٨٢٧ إلى ١٨٣٤ ثم انحرفت بعد ذلك ، واتخذت هناك وفى مختلف أنحاء العالم صورتها الجديدة فى أن غرضها تحقيق المنافع للأعضاء فى حدود النطاق الاقتصادى فحسب دون الحاجة إلى الالتجاء إلى الدعوة السياسية للتعاون لتحقيق إصلاحات اجتماعية واسعة على أساس التآزر مع نبذ فكرة كفاح الطبقات كما أراد الاشتراكى الانجليزى « روبرت أوين Robert Owen » أحد أقطاب الحركة التعاونية فى القرن الماضى .

ولكن مع ذلك تكون حزب سياسى تعاونى فى انجلترا سنة ١٩١٧ كى يحقق مصالح الحركة التعاونية وحتى يمكنه أن يلحق بعض المشروعات وخاصة التى تتناول المواد الغذائية بالنظام التعاونى ، وكان هذا الحزب وثيق الصلة والاتحاد مع حزب العمال ولكنه لم يكن بخاضع له أو متفرع منه وكان الحزب ينظم أموره فى الانتخابات على أساس أن عدداً منه يتقدم كمرشح لكل من حزبى العمال والتعاون لتعضيد الحزبين .

ونرى فى كل البلدان الدستورية أن الحزب التعاونى يؤيد مرشح العمال ، ووصل عدد الأعضاء فى مجلس العموم فى انجلترا الذين ينتمون إلى الحزب التعاونى إلى ٢٤ فى وزارة العمال الماضية التى سبقت الوزارة الحالية ، وكان منهم وزيرا فى هذه الوزارة السالفة ولكن لايعنى بهذا أن كافة أعضاءالجمعيات التعاونية هناك يؤيدون الحزب بل منهم من يؤيد أو ينتمى إلى أحزاب أخرى ، وبلغ مجموع الجمعيات التعاونية نحو ١٥٠٠ وعدد الأعضاء نحو ١٠ مليون والجمعيات المنضمة للحزب ٧٠٠ وعدد الأعضاء نحو ٨ مليون وذلك حسب إحصاءات ديسمبر سنة ١٩٤٦ .

٢ — أثر التعاون فى الرأى العام :

التعاون هو الوعاء الذى يضم الطبقات المتوسطة وصغار التجار والصناع والملاك الزراعيين ، وهو يجمعهم فى إطار واحد ليتمكن المشرع من حمايتهم ومساعدتهم فى

المضى قدماً فى الانتاج وفى كسب العيش وهم فى مأمن من طغيان رؤوس الأموال الضخمة والاحتكارات وهم يكونون قوة فى الدولة ، وهذه القوة تساعد على نشر الوئام والتآزر والتآلف وبث مبادىء التعاون بين أبناء الشعب فى نطاق أوسع من نطاق العمال ، فهو قوة دعاية معنوية ومادية بما يحققه النظام من كسب وهو مرآة مع نجاح النظام التعاونى فى الدلالة على صفاء نفسية الشعب وقيام حياة اجتماعية وسياسية على أساس الاتحاد بدلا من كفاح الطبقات .

وفى النهاية يتضح من التهافت على جمعيات التعاون ومساعدة الدولة لهذه الجمعيات وما تنشره من صحف ونشرات ودعاية منتظمة اهميتها اليوم ، كما تدل هذه الظواهر على مطالب الجمهور واتجاهات الناس وحاجاتهم .

وتعدى أثر جمعيات التعاون فى التعامل كما سبق أن بينا ميدان مجرد تحقيق الحاجات الاقتصادية فى ميادين الانتاج والاستهلاك إلى الميدان السياسى وإلى الدستور والحياة النيابية وفى كل هذه الصفات تبرز أهمية التعاون فى اتجاه الرأى العام وتوجيهه .

الفصل الحادى عشر

الشركات

الشركات تمثل ناحية من نواحى الرأى العام وهى الناحية الرأسمالية وأصحاب المصالح وعدد وفير من المدخرين .

وبعض الشركات الدولية ذات رؤوس الأموال الضخمة وشركات الامتياز وكبرى المؤسسات المالية لها أثر كبير فى الميدان السياسى ، وقبل أن نشرح هذا نذكر أن الشركات الضخمة الحديثة من صناعة فلاسفة الاقتصاد فى القرن التاسع عشر وبالذات أصحاب المذهب الاشتراكى القائم على المثل العليا وفى طليعتهم سان سيمون وتلاميذه .

وقد صحب الانقلاب الصناعى التفكير الجدى فى إمكان استغلال الانقلاب الصناعى عن طريق استخدام رؤوس أموال ضخمة لإنشاء مشروعات صناعية واسعة النطاق وتحقيق أحلام السانسيمونيين لاستغلال وسائل النقل ومسالك البر والبحر والمناجم وغيرها ، ولا يكون هذا إلا عن طريق اكتتاب صغار المدخرين فى حصص ضئيلة وباجتماعها مع بعضها البعض تكون رؤوس أموال ضخمة ويمكن تحقيق هذه المشروعات .

وفعلا ترتب على اتساع نطاق الشركات تغيير وجه العالم الصناعى وانتشار التجارة الدولية وتقريب المسافات البعيدة واستثمار المناجم وإنشاء شركات التعدين الكبرى والمصارف وربط عواصم أوربا بعضها ببعض وربط شاطىء الأطلنطى بشقيه وإنشاء شركات الملاحة فيما وراء البحار وتأسيس البنوك الكبرى لتمويل المشروعات ، ويرجع شق قناة السويس لفكرة السنسمونيين فى جمع المال لإنشاء « الشركة العالمية لقناة السويس البحرية » كما يرجع ربط مختلف المدن الكبرى فى أوربا بالسكك الحديدية إلى رواج فكرة الشركات .

وأصبح للشركات أثر كبير فى توجيه سياسة الحكومات ، وللمساهمين فيها ضلع لايستهان به فى الضغط على الحكومات وفى عرض مطالبهم والدفاع عنها ، وصار للشركات صحف هى لسان حالها وهى عند اللزوم تهز الحكومات وتقيم حكومات وتطيح بأخرى ، بل وتعدى أثرها إلى الميدان الدولى مثال ذلك شركات البترول وأصبح لها تأثير كبير فى اتجاهات السياسة العالمية وأصبحت بما تنشره من دعاية لها وبما يتردد على أفواه المناصرين

لها وما يكتبونه فى الصحف أصبح لكل هذا تأثير لا فى عالم الرأسمالية والصناعة فحسب بل وفى الرأى العام القومى والدولى ، وقامت أحزاب على أساس الدعاية لمصالح الشركات وقامت حرب بين الأحزاب السياسية واختلفت وجهات نظر الرأى العام على أساس التأييد لفكرة أولأخرى تحتضنها الشركات .

ونرى هذا فى صراع المدرسة الحرة لمانشستر والمدرسة المعارضة فى وجوب حماية التجارة البريطانية وعدمهحتى أوائل قرننا الحالى ، وامتد الصراع إلى ميدان الايديولوجية والمذهبية الاشتراكية ، فمن رأى يؤيده عددلايستهان بهمن البروليتاريا ينادى بوجوب إنهاء الرأسمالية والشركات ونفوذها وأن طبيعة الأشياء ستقضى بانتصار الأكثر عدداً والأسوأ حالا وأن أدوات الانتاج ما دامت جماعية فى الشركات فالملكية ستصبح أيضاً جماعية ، إلى رأى آخر معارض يقول أن الشركات هى عماد الازدهار الاقتصادى والمدنية الحالية وأنه لن يقضى عليها مستقبلا بل أن العيوب التى شابت الرأسمالية عن طريق استغلال الشركات للناس وعن طريق الاحتكارات وتدخل الشركات فى السياسة وإقامتهـا حكومات وإسقاطها حكومات أخرى يمكن علاجها مع الإبقاء على النظام الرأسمالى ، كما قيل بأن المشاهد أنه لن يقضى على الشركات ولن ينتهى الأمر بالقضاء على النظام الرأسمالى وإنما يسير العالم نحو اقتصاد موحد ينتظم فيه الانتاج فى حدود نظام رأسمالى موجه ، ويتعين أن ينظم بطريقة عادلة رأس المال والامتلاك الفردى .

والشركات هذه استغلت الصحافة إلى أقصى حد وقد أصبحت الصحافة اليوم أيضاً مشروعات اقتصادية وصارت الشركات توجه طائفة لمصلحتها كما صارت تستغل ميدان الصحافة والرأى العام لتصرفه عما هو طيب وحسن إلى ما هو تافه وسيىء ، فهى تدعو لفكرة معينة قد تنتهى بالحرب لصالح الشركات أو بأن تشغل الرأى العام بفضائح ومسائل شخصية لا طائل تحتها ، ولكن لا يعنى بهذا أنه يتعين هدم نظام الشركات أو إثارة الحرب على الرأسمالية وطبقات المدخرين .

وإذا اتجه الفكر إلى هذا فإننا نصبح كمن يريد أن يعالج حقلا أصيب بآفات زراعية بحرق الزرع والضرع فيه دون اتخاذ علاج يكفل انقاذ المحصول من الآفات ، والمنطق يقضى فى هذه الحالة بعلاج العيوب التى تشوب الصحافة نتيجة استغلال شركات الاحتكار لها .

الفصل الثانى عشر

الجمعيات القومية غير الحكومية والجمعيات الدولية غير الحكومية المتشاورة وغير المتشاورة مع الأمم المتحدة

هذه الجمعيات تمثل ناحية من نواحى الرأى العام يجتمع فى صعيدها أعضاء أو جمعيات من بلدان مختلفة ، وهدفها نشر فكرة معينة والدفاع عن مصالح معنوية وأدبية للأعضاء والحض على التعاون والتحاب بين الناس ، وهى تمثل قوة تؤثر فى مجرى السياسة الدولية والقومية وكثيراً ما كان لها أثرها أيضاً فى إنشاء المؤتمرات الدائمة والمعاهدات الدولية والمنظمات الإقليمية والدولية وفى الدفاع عن الحقوق والأفراد والجماعات ، ويحسن أن نعرف هذه الجمعيات كجمعيات قومية ثم كجمعيات دولية ثم نشرح بعد ذلك ما جاءت به من مزايا وما قدمته من خدمات للإنسانية .

١ ــ الجمعيات القومية :

هى اتحاد من عدة أفراد فى بلد معين تتخذ الجمعية بناء على ذلك طابعاً قومياً لادولياً ويجتمع فى صعيدها أعضاء من جنسية ذلك البلد الذى تقوم الجمعية فيه وتباشر نشاطها هناك ، وهدفها خدمة الأعضاء ، وقد يكون بعضهم استثناء من جنسية أخرى ، ولكن الخدمة تؤديها الجمعية فى نطاق قومى لا دولى وعلى ذلك نرى أن الأعضاء لهم جنسية واحدة أو إذا اختلطت جنسياتهم فهدفهم خدمة الأعضاء فى النطاق الإقليمى داخل إطار الدولة المسجلة فيها الجمعية .

والخدمات التى تؤديها الجمعية خدمات معنوية وليست مادية وإلا أصبحت الجمعية أقرب إلى الشركات أو إلى الجمعيات التعاونية منها إلى الجمعيات غير الحكومية .

ويعنى بأنها غير حكومية أن الحكومات لا تتدخل فى تنظيم ميزانيتها ولا تعتبر جزءاً من جهاز الحكومة ولاتستمد مالها من ميزانية الدولة إلا استثناء فى حدود إعانات محددة تقدمها الدولة لتشجيع خدمات هذه الجمعيات .

وهذه الجمعيات غير الحكومية عديدة مثال ذلك الجمعيات الخاصة للملحنين

والمطربين وجمعيات المحافظة على القرآن الكريم عندنا وجمعيات رعاية الطفولة وحماية الأمومة وسائر الجمعيات الأدبية والرياضية ... الخ .

وهذه الجمعيات تؤدى خدمات لالأعضائها فحسب بل لمجموع الأمة بما تنشره من دعوة بين الرأى العام لفكرتها سواء بالدفاع عن حقوق الإنسان أو عن حق المؤلفين أو عن لعبة من الألعاب الرياضية وحمايتها أو فيما يختص بجمعيات منع التدخين أو نشر الدعوة ضد الخمر واضرارها بالصحة وجمعيات مكافحة المخدرات وتجارة الرقيق الأبيض .. الخ

وهذه الجمعيات تتصل بالسلطات العامة من آن لآخر لغرضين :

(ا) مطالبة الدولة بمساعدتها للدفاع عن فكرتها واستصدار القوانين اللازمة لذلك والمساعدات مادية ومعنوية ، والمادية فى صورة مبالغ من المال تقدم للجمعية من آن لآخر وبانتظام أو بمناسبة عقد مؤتمراتها أو موائدها المستديرة ، والمعنوية فى صورة تسهيلات تقدم لها مثلا بمناسبة عقد مؤتمراتها واجتماعها والقوانين اللازمة لها مثل الاعتراف بها ومنحها ذاتيتها لإمكانها إدارة أموالها .. الخ .

(ب) الدفاع عن مصالح الأعضاء وحمايتهم مما يعترض تفكيرهم فى الدفاع عما هو طيب وحسن وتذليل العقبات فى وجه دعوة تسىء إليهم فى حقل من حقول نشاطهم أو بتشجيعهم مثلا شرب الماء القراح والامتناع عن شرب الخمر أو فى حقل تسفيه أفكارهم فيما يختص بعدم تعاطى التدخين .... الخ .

٢ ــ الجمعيات الدولية غير الحكومية :

هى مجموعات لمؤتمرين ولمنظمات وهيئات تتكون من الناس والشعوب لا من الدول لكى تحقق هدفاً معيناً مجتمعاً كالدفاع عن حق أو مواقف معينة أو الدفاع عن مصالح مشتركة بمقتضى نظام ينخرط فى سلكه أصحاب المصلحة من الأعضاء .

وهدفها الأسمى هو التعاون فى الميدان الدولى والسلام وتقدم الإنسانية وليس لهذه الجمعيات بأى حال من الأحوال غرض مادى .

وإذا تكونت هذه الجمعيات من أفراد أو مجموعات من الناس أو من جمعيات اتحدت مع بعضها تكون جمعيات دولية ولكن دون أن تكون لها الصفة الرسمية أى أنها لا تمثل حكومة من الحكومات أو دولة من الدول وبذا فإنها تصبح جمعيات غير حكومية ، وهى الآن قوة لا يستهان بها لبناء عالم أفضل ولا رساء السلام على قواعد أثبت ، وقد أخذت الجمعيات الدولية غير الحكومية منذ نهاية القرن الماضى مركزاً مرموقاً وأخذ نطاقها يتسع واتخذت منها الشعوب والحكومات ملاذاً للبحث عن حل

سلمى يقضى على المنازعات الدولية المسلحة وغيرها ، وكذلك لمحاولة علاج الأزمات الدولية والمصالح المتعارضة للدول بما فى ذلك السلام الزائف وسباق التسلح الذى أخذت تطرد زيادته ، وهناك جمعيات من أشخاص وأخرى من جمعيات قومية وهدفها ينحو أدبياً أو فنياً وقد يكون اجتماعياً أو ثقافياً أو اقتصادياً أو رياضياً الخ .. ولكنها ليست مادية أو لغرض الربح .

وان يقظة الضمير الوطنى أو القومى والدولى للشعوب فى القرن الماضى وتزايد التدخل فى سبيل السلام وبدء نزول الرأى العام القومى فى الميدان الدولى لحماية الإنسان من أزهاق روحه فى دمار الحروب الحديثة مع تزايد وسائل النقل وصعود الإنتاج الزراعى والصناعى المستمر وتقدم الآلة وانتشارها وانتشار المشروعات والشركات الدولية وكفاح الدول الصناعية للاستئثار بالأسواق العالمية واحتكار موارد المادة الأولية فيما وراء البحار والتنافس الاستعمارى بين الدول الكبرى لغرض تقوية الرأسمالية الأوروبية والمخترعات الحديثة للحرب التى توسع شقة النزاع وسباق التسلح دون هوادة ودون رحمة وخصوصاً بين الدول الاستعمارية الغربية ، كل هذه العوامل حدت بالشعوب إلى التدخل من الناحية القومية والدولية فى سبيل إقرار السلام ، وبذلت جهود متعددة منذ مطلع القرن الماضى تعدت مجرد المساعى الحميدة والوساطة ومن هذه الجهود ما بذله مؤتمر فيينا لإعادة تنظيم أوربا ورسم الحدود وفرض شىء من الرقابة الدولية على الدول العظمى ، وتبع ذلك مؤتمرات واتفاقات متعددة فى لاهاى وأعقب ذلك إنشاء محكمة التحكيم الدولى ، ثم جاءت بعد ذلك معاهدة فرساى ثم إنشاء عصبة الأمم ثم إقامة منظمة الأمم المتحدة .

كما لا نغفل ذكر ما بذلته الشعوب فى سبيل نبذ الحرب وأهمها اتفاق بريان كيلوج سنة ١٩٢٨ المعروف باتفاق باريس ، كما تعددت الجهود والتعاون بين الحكومات والشعوب فى جمعيات خاصة دولية وقومية لتبادل التعاون المعنوى والمادى وفى سبيل ارساء مراسى السلام ، واشترك فى هذه الجمعيات أفراد من جنسيات متعددة وتعددت هذه الجمعيات كما اتسع نطاق واجباتها من مجرد تعاون متبادل بين الأفراد كأشخاص إلى بذل هذه الجمعيات النصائح والارشادات للدول والحكومات فى ميدان الثقافة والاقتصاد والفن والاجتماع وأصبحت توصياتها وأمانيها من الأهمية بمكان لإقرار السلام بين الشعوب .

وتميزت أعمالها باتجاهها نحو تعديل قواعد معينة فى الميدان الدولى كما ظهر أثرها فى الميدان الدستورى والإدارى ، ونرى جهود هذه الجمعيات واضحة ظاهرة فيما يختص باستخدام الأسلحة الحديثة وفيما يختص بمعاملة الأسرى والجرحى .

وكان لهذه الجمعيات أثر كبير فى الاعداد لمؤتمرات لاهاى وكذلك فيما يختص بالاعلان العالمى لحقوق الإنسان وفيما يختص بإقامة فقه دولى وتبويب القانون الدولى وجعل الحرب

أكثر إنسانية وخاصة فى نطاق جمعيات الصليب الأحمر وحماية حقوق التأليف والحقوق الأدبية والفنية والصناعية ، وأخذ نجمها يصعد بعد الحرب العالمية الأولى ، ومن العوامل التى ساعدت فى هذا ما قدمه الأفراد والدول لهذه الجمعيات من مساعدات لكى تثمر جهودها فى سبيل منع الحرب .

وكما تهتم الجمعيات السياسية بنشاط الدول والحكومات فان هذه تهتم بعلاقات الجماعة الإنسانية التى تضم أفراداً وهيئات غير حكومية تدافع عن حقوق الإنسانية فيما تقدمه من توصيات ومن مساعدات فى سبيل السلام فى زمن الحرب والسلم ، وفيما تقدمه من أمانى ونصح للحكومات .

وهذه الجمعيات أو الهيئات تنشأ بالجهود الخاصة لا الحكومية وبإيمان من الأفراد بمبادىء إنسانية معينة وبعقد الأفراد الخناصر فى سبيل التعاون بعضهم مع بعض فى النطاق القومى والدولى ، وهم يبحثون فى ذلك عن السلام وتدعيم واحترام حقوق الإنسان وتعاون الشعوب أدبياً وفنياً فى نطاق هذه الجمعيات .

وهذه الجمعيات بما يتمثل فيها من تعاون نراها فى النطاق الدولى كذلك فى النقابات الدولية والغرف التجارية الدولية ومعاهد الأبحاث الدولية علاوة على كافة الهيئات غير الحكومية الدولية ، وهذه الجمعيات التى تضم أفراداً يؤدون خدمات للإنسانية لا تقدر بتضافرهم ليس لها الصفة الرسمية وليست فى مستوى الجمعيات الحكومية الدولية ، ولكنها يمكنها أن تقنع الحكومات وتؤثر فيها عن طريق قوتها كركن من أركان الرأى العام لكى تغير فكرها تجاه مشاكل معينة ، كما أنها تستطيع بما لها من قوى أن تأخذ فى اعتبارها مصالح شعوب متعددة فى سبيل التقارب بينها وفى سبيل الدفاع عن مصالحها المشتركة ، ولقد شاهدنا نشاطاً لهذه الجمعيات سبق الحرب العالمية الثانية .

ويمكننا أن نقسم الموقف إلى قسمين : —

١ — ففى ميثاق عصبة الأمم وبمقتضى المادة ٢٤ الفقرة الأولى نشأت علاقة بحكم الميثاق يؤخذ منها اعتراف الأمم بهذه الجمعيات ولكن الصلة كانت ضعيفة فتقول الفقرة المشار إليها الآتى :

« كافة المكاتب الدولية التى نشأت باتفاقات جماعية يمكنها بشرط موافقة المتعاقدين أن تصبح ضمن سلطان عصبة الأمم ، أما المكاتب الأخرى وسائر اللجان التى تهتم بالمصالح الدولية وتنشأ بعد قيام هذا الميثاق فإنها تصبح تحت سلطان عصبة الأمم » .

وهكذا نجد أن العصبة جعلت من الممثلين للمكاتب أو للتنظيمات الدولية التى تتطلب رقابة من عصبة الأمم أن تنشد ذلك من العصبة كما أنها تركت الحرية لها دون

ضغط منها عليها ، وفى هذه الحالة يمكن للعصبة وقد حدث ذلك فعلا أن تسترشد ببعض الخبراء فى هذه الهيئات .

٢ — هذه العلاقة توثقت فى صورة أقوى فى ميثاق الأمم المتحدة بحكم المادة ٧١ من الميثاق ، وقد غير الميثاق صفة هذه الجمعيات فسماها جمعيات غير حكومية وكان يطلق عليها جمعيات خاصة ، وتعنى المادة ٧١ من الميثاق بإنشاء نظام للتشاور بين هذه الجمعيات وبين المجلس الاقتصادى والاجتماعى والهيئات المتخصصة ، وذلك لامكان أن يطلب المجلس الاقتصادى والاجتماعى والهيئات المتخصصة من الجمعيات الرأى ويكلفها بوضع تقارير معينة فى المسائل التى يستشيرها فيها ، كما أنه قد يتخذ ما يراه فى سبيل تنفيذ رغباتها ، وهو إذا شاء يرفع تقاريرها وآراءها وملاحظاتها إلى الجمعية العمومية ، وفى ذلك تقول المادة المذكورة : « للمجلس الاقتصادى والاجتماعى أن يعمل على اشراك مندوبى الوكالات المتخصصة فى مداولات اللجان التى ينشئها دون أن يكون لهم حق التصويت ، كما أن له أن يعمل على إشراك مندوبيه فى مداولات الوكالة المتخصصة » .

وأعطى المجلس الاقتصادى والاجتماعى نتيجة التشاور التعريف الآتى لهذه الجمعيات فقال : « الهيئة الدولية غير الحكومية هى كل تنظيم لجماعات الأفراد لا يقوم على أساس اتفاق بين الحكومات » ، وبناء عليه فالهيئات الدولية غير الحكومية تنظمها قواعد يضعها الأعضاء خارج نطاق الحكومات والعمل الرسمى ، وأهم صفة فيها أنها خاصة ، وفى نفس تنظيمها يحدد هدفها وهو تدعيم العلاقات الأدبية والمعنوية والمعونة من الناحية الدولية للنهوض بالأفراد والجماعات والجمعيات والشعوب من الناحية المادية والمعنوية على أساس صادق من التعاون .

ومنذ قيام الحرب العالمية الثانية ونشاط منظمة الأمم المتحدة اشتد نشاط هذه الجمعيات وذلك فى سبيل التقدم الاجتماعى وإرساء قواعد أفضل للحريات وللحياة الإنسانية ولتحقيق التعاون الدولى عن طريق حل المشكلات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والإنسانية والحريات الأساسية بلا فارق بين جنس وآخر أو لغة وأخرى أو دين وآخر ، وذلك لإنشاء عالم أفضل ولوضع حد للحرب ولرفع المستوى المادى والمعنوى للإنسان وللسير قدماً فى سبيل التقدم الاقتصادى والثقافى والفنى على أساس المساواة بين الناس ، ونرى بالمقارنة بين المادة ٢٤ من ميثاق عصبة الأمم والمادة ٧١ من ميثاق الأمم المتحدة أن التنظيم الدولى الجديد أعطى أهمية أكثر لهذه الجمعيات وأنه جاء بتنظيم استشارى لها ولكنه يكاد يكون أقرب إلى الجبرى ، حتى يمكنها المشاركة بقسط فى التعاون الدولى .

واتسع نطاق هذه الجمعيات فى الميدان الدولى فى الزراعة والعلوم والتربية والثقافة والأدب والفن والقانون والعلوم السياسية والمواصلات والإحصاء والرياضة والصحة

والبناء ، وكان لا يزيد عدد هذه الجمعيات فى أوربا عن بضع عشرات وأصبح عددها اليوم أكثر من ٢٠٠٠ كما أنها عقدت من سنة ١٨٥٠ إلى ١٩٣٩ــ٦٠٠٠ مؤتمر ، ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية أخذ نشاطها يتصاعد باستمرار ، وهذه الجمعيات تتميز بما يأتى : —

(ا) أنها من صناعة الأفراد والجماعات بصفة خاصة لا بصفة رسمية وحكومية أى أنها تتكون خارج الإطار الدولى أو خارج إطار الدولة وخارج تنظيم المؤتمرات بين الحكومات ، وعلى ذلك فهى تخضع للتشريعات القومية التى تنظم الجمعيات حيث تباشر نشاطها .

(ب) هذه الجمعيات لها نشاط دولى أى أن منشأها يتعدى الناحية الإقليمية للدولة وتقدم الخدمات لمختلف الأفراد والجماعات من دول مختلفة إذا كانوا أعضاء فى الجمعية ، وهكذا فهذه الجمعيات لشعوب تكون مجموعات قوية ولها تأثير طيب وقوى وضاغط على الحكومات فى الوقت المناسب .

(ج) هذه الجمعيات لها هدفها المحدد طبقاً لنظامها الأساسى وما يذكره من نشاط وهدفها ليس بمجال مادى للربح ، بل هو إنسانى وفى لخدمة الإنسانية عن طريق مساعدة الفرد كعضو فى هذه الجمعيات أو لخدمة التقدم الاجتماعى والمادى للإنسانية ، ولكن على أى حال فالهدف دائماً الدولة باعتبارها على رأس الجماعة الإنسانية وبما تفرضه من رقابة ومن توزيع للنشاط الاجتماعى ، وبناء على ذلك فخدمات هذه الجمعيات تساعد فى تدعيم مصالح الشعوب والدول ومصالحها القائمة على التعاون بعضها مع بعض .

ويمكن استخلاص ما يأتى :—

١ — أن توصيات وأمانى هذه الجمعيات ليست لها صفة حكومية ولا تتخذ باسم الدول ، ولكنها تهتم إلى حدما بالاتجاهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية للحكومات دون أن تتصف بالمناورات الدبلوماسية فيما وراء الكواليس للمؤتمرات الدولية والحكومية .

٢ — أن التوصيات تختلف باختلاف نشاط الجمعيات وأغراضها ، فهناك توصيات فنية وعلمية وصحية ودينية وأدبية وقانونية واجتماعية ، وغرضها دائماً التقارب بين الجماعات وتقوية دعائم التعاون فى سبيل السلام بين الأفراد والشعوب .

٣ — نشاط هذه الجمعيات واجتماعاتها فى مؤتمرات أو فى مجرد حلقات وسيمنارات لا تمولها الحكومات ، ولكن تمولها اشتراكات الأعضاء وما تتلقاه من إعانات من المعاهد التى يهمها الأمر وسائر المنظمات الدولية والحكومية ، مثال ذلك الأمم المتحدة وهيئاتها

المتخصصة وعلى رأسها المجلس الاقتصادى والاجتماعى وهيئة اليونسكو ، وهذا الأمر يجعلها فى مأمن من تأثير الحكومات عليها ومن تعارض التيارات السياسية .

٤ — هذه الجمعيات فى تقدم مستمر ، وزاد عددها بازدهار سيادة الأمة وحقوق الإنسان وحق الشعوب فى تقرير مصيرها والدساتير التى منحت للشعوب أو انتزعتها من من الحكام انتزاعاً ومن الحملات المتتابعة فى سبيل التقارب بين الشعوب ، وهذه العوامل كان لها أثر كبير فى الاتفاقات الخاصة بانسانية الحرب وبتحريم استخدامها الأسلحة التى تسبب آلاماً للإنسان وتدميراً على نطاق واسع ، وصارت هذه الجمعيات حصناً للسلام وموئلا للتعاون الفنى والاقتصادى والاجتماعى والسياسى والثقافى بين الشعوب .

٥ — إن هذه الجمعيات بانتشارها وامتداد نشاطها الجغرافى عبر القارات وكثرة تعداد أعضائها ، كل هذه العوامل تجعلنا نتفاءل فى مستقبل أفضل لتعاون الإنسانية وربما يصبح من الممكن مستقبلا وفى حالة امتداد نشاط هذه الجمعيات وإقامة نظام فيدرالى بينها فى أن تصبح صدى لصوت الأفراد والشعوب وقوة جارفة للرأى العام العالمى الصالح ولديناميكيته وتطوره ، وتصبح شبه برلمان عالمى أو مجموعة برلمانات تستند على قوى اجتماعية وفنية متخصصة وعلى رأى عام قوى فى سبيل تعاون البشرية .

ونشاط هذه الجمعيات وسيرها قدماً فى سبيل النمو وزيادة عددها واهتمام المحافل الدولية بها بدأ منذ ما بعد انهيار امبراطورية بونابرت ، فإن البناء السياسى الدولى بعد زوال امبراطورية النسر شجع بطريقة غير مباشرة إنشاء هذه الجمعيات وذلك لمكافحة الرق خارج نطاق الحكومات من الناحية القومية والدولية .

ونرى منذ بدء القرن التاسع عشر مؤتمرات واجتماعات لهذه الجمعيات ، ونذكر من هذه المؤتمرات بالتتابع مؤتمرات للعلوم والفيزيقا التى اجتمعت فى جنيف وأخرى فى العلوم الطبيعية ولدراسة الطبيعة اجتمعت فى بلاد اسكندنافية وفى كوبنهاجن ، ومن أهم الاجتماعات لمكافحة الرق الاتفاق فى سبيل مكافحة الرق فى لندن سنة ١٨٤٠ ثم سنة ١٨٤٣ ، كما لا ننسى مؤتمر الطلبة الذى عقد فى أوبسالا سنة ١٨٤٣ ونذكر أيضاً المؤتمر الدولى للعلوم سنة ١٨٤٣ ، ثم مؤتمر الطلبة بكوبنهاجن سنة ١٨٤٥ ، والمؤتمر الصحى الدولى فى باريس سنة ١٨٥١ والمؤتمر الدولى للمراسيم فى بروكسل سنة ١٨٥٣ أيضاً ، ثم مؤتمر أمراض العيون فى بروكسل سنة ١٨٥٧ ثم المؤتمر الدولى للملكية الأدبية والفنية فى بروكسل سنة ١٨٥٨ ثم المؤتمر الدولى للجمعية الدولية لتقدم العلوم الاجتماعية فى بروكسل سنة ١٨٦٢ والمؤتمر الدولى للتلغراف فى باريس سنة ١٨٦٥ والمؤتمر الدولى للأدوية فى برونسفلك سنة ١٨٦٥ والمؤتمر الدولى للطلبة فى لييج سنة ١٨٦٥ .

وأخذ عدد المؤتمرات فى هذا الصدد يزيد تدريجياً ، ومما يذكر أنه فى سنة ١٨٦٩ اجتمع ١١١ مؤتمراً فى مختلف العواصم والمدن الكبرى فى أوربا لبحث شتى المسائل التى تتناول التشريع والعلوم الاجتماعية والفنية .

وغرض هذه المؤتمرات ليس مادياً إنما هدفها أن تقوى التعاون الدولى بين الأفراد والشعوب ، وكثيراً ما رأينا جمعيات قومية أو أهلية اتحدت مع جمعيات فى الخارج وكونت جمعيات دولية .

وكلما شعر الناس فى مختلف البلدان بأنه لا غنى عن التعاون بعضهم مع بعض اتضحت أهمية هذه الجمعيات الدولية غير الحكومية وضرورة اجتماعاتها المتكررة .

وواجباتها متشعبة وهى لا تقف عند حد منذ الحرب الحديثة والدعاية ضدها ومطالبة الحكومات تدعيم السلام ولكن واجباتها تتناول أيضاً الدفاع عن الخلق الإنسانى وحقوق الإنسان ، مثال ذلك الجمعيات المسيحية وفى مقدمتها جمعية الشبان المسيحيين التى تأسست سنة ١٨٥٥ وجمعية القانون الدولى ومعهد القانون الدولى الذى تأسس سنة ١٨٧٣ فى بروكسل . ثم الاتحاد البرلمانى الدولى الذى تأسس سنة ١٨٨٨ فى بروكسل ومكتب السلام فى جنيف الذى تأسس سنة ١٨٩٠ وتأسست جمعيات وهيئات واجتمعت مراراً ما بين ١٨٦٥ و ١٩٠٦ لشئون البرق والبريد والمكاييل والموازين والملكية الصناعية والفنية والأدبية وإلغاء الرق ومكافحة الرقيق الأبيض والتعريفة الجمركية وشئون الزراعة والصحة وشئون المواصلات .

ولكن حتى قيام الحرب العالمية الأولى كانت هذه الجمعيات فى طفولتها ولم تكن بعد قد اجتازت مرحلة الكفاح فى سبيل نشاطها ، وبعد سنة ١٩١٩ عقدت اجتماعات كثيرة وزادت اجتماعاتها عن ذى قبل ، ومن هذه الجمعيات من كانت تعمل فى سبيل توفير معاملة أفضل للمسجونين وللأسرى والجرحى واللاجئين ولمن قاسوا فظائع الحرب الحديثة كما تعمل للوقاية من العودة إلى حرب شاملة مدمرة نذكر منها : الجمعية الدولية للصليب الأحمر وتدخل ضمنها اللجنة الدولية للصليب الأحمر التى تأسست فى جنيف سنة ١٨٦٣ ثم عصبة جمعيات الصليب الأحمر التى تأسست فى جنيف سنة ١٩١٩ وشتى الجمعيات الأهلية للصليب الأحمر والعصبة الدولية النسائية للسلام والحرية التى تأسست فى لاهاى سنة ١٩١٥ ، وبعد الحرب العالمية الأولى رأت الشعوب والحكومات وقد خشيت كارثة جديدة أن تشجع هذه الجمعيات لتنشيط العمل لتقارب الشعوب ومنها الجمعيات الدولية الحكومية وعلى رأسها عصبة الأمم ثم الهيئة الدولية للعمل والمحكمة الدائمة للعدل الدولى وبنك الدفع الدولى ، ومنها أيضاً الجمعيات الدولية غير الحكومية .

ومن الجمعيات الخاصة نذكر أيضاً الغرفة التجارية الدولية ، وفى سنة ١٩٥٠ كانت تمثل ٣ مليون مؤسسة اقتصادية ، والاتحادات التعاونية الدولية وعدد أعضائها ٧١ مليون ، والاتحاد الدولى للنقابات وتضم ٢٠ مليون عضو ، وكانت هذه الهيئات تنظر إلى المستقبل بعد الحرب العالمية الأولى نظرة تفاؤل ، وذلك رغم المساعدة الضعيفة التى كانت تمدها المادة ٢٤ من ميثاق عصبة الأمم إلى هذه الجمعيات للمحافظة عليها ؛ ولم تصل إلى تأييد ميثاق الأمم المتحدة لها كما نراه حالا ، وكانت ميزانيات العديد من هذه الجمعيات تنمو باستمرار ، مثال ذلك الروتارى الدولى وميزانيته بلغت سنة ١٩٥٠ مليون دولار فى السنة والوكالة اليهودية فى فلسطين (وغرضها السوء) وكانت ميزانيتها السنوية أكثر من ٤ مليون دولار .

ولكن بعض هذه الجمعيات أصيبت بهزات وتقهقر جهدها تبعاً لما حل بها من هلع فى النصف الاخير لما بين الحربين العالميتين ، وبدأ نجمها يأفل بعد تألق نشاطها نتيجة ظهور الفاشية والنازية والاعتداء اليابانى على الصين والحواجز الجمركية المرتفعة وما أصيب به العالم من خيبة الأمل فى عصبة الأمم ، وفقد الاتحاد الدولى للنقابات بضعة ملايين من أعضائه بانسحاب الأعضاء الألمان منه سنة ١٩٣٣ ، وبالمثل نادى الروتارى أيضاً وعدد كبير من الجمعيات الاقتصادية والعلمية والفنية والقانونية ، وأعطى النازيون أمراً للأعضاء العسكريين والموظفين بالانسحاب من نادى الروتارى ؛ غير أن حكومات المحور اتخذت من بعض هذه الجمعيات أداة لدعايتها وللحصول على معلومات لصالح النازية والفاشية مع إهمال السبب الذى من أجله تأسست هذه الجمعيات .

وبعد الحرب العالمية الثانية وبفضل المساعدة التى قدمتها المادة ٧١ من ميثاق الأمم المتحدة لهذه الجمعيات حيث أنشأت لها نظاماً استشارياً فى رحاب المجلس الاقتصادى والاجتماعى وهو من الهيئات الأساسية للأمم المتحدة أخذت هذه الجمعيات تكسب الأرض التى فقدتها قديما وتنمو وتتضح أهميتها فى معونتها الفنية والاجتماعية والاقتصادية والأدبية والخلقية والقانونية وفى الدفاع عن قضية السلام وللتقارب بين الشعوب ، وفى سنة ١٩٥٩ كان عدد الجمعيات غير الحكومية ١٩٧٨ تجتمع سنوياً وتبلغ الاجتماعات فى العام بالمئات لهذه الجمعيات ، وبلغت الجمعيات المتشاورة مع الأمم المتحدة فى نفس السنة المذكورة ٣٣٤ وغرضها وفقاً للمادة ٧١ من ميثاق الأمم المتحدة أن تضمن تحقيق التقدم الاقتصادى والاجتماعى والفنى والتعاون بين الشعوب وذلك فى سبيل رفع المستوى المادى والمعنوى للفرد والجماعة .

ويتحقق هذا على وجه أكمل نتيجة تشاور هذه الجمعيات مع الهيئة المختصة فى الأمم المتحدة ووكالاتها لكى تتجه هذه الوكالات المتخصصة اتجاهاً صحيحاً لمعاونة الفرد فى

حقل نشاط هذه الجمعيات ، وعلى ذلك يمكن أن نذكر أن العلاقات السلمية بين الشعوب لا تخضع فقط لتصرفات الدول والحكومات ولكنها تتأثر بالرأى العام للشعوب ولضغط وتأثير المجموعات الدولية واتجاهات الجمعيات الدولية غير الحكومية ، وهكذا يمكن بناء التعاون والسلام ، وهذه الجمعيات تتصرف دفاعاً عن المبادىء والأهداف التى تأسست من أجلها ولتحقيقها مستقلة وغير متأثرة بالسلطات العامة والحكومات ووفقاً لنظامها الأساسى .

وهكذا يقود هذه الجمعيات الأفراد والشعوب نحو تعاون واتحاد بينها خارج نطاق الدول لا فى سبيل الدفاع عن المصالح المشتركة ولكن فى سبيل السلام الذى تنادى به هذه الجمعيات ، وإن قوتها المعنوية فى أنها ليست لغرض الربح وتحقيق المال فهى ليست شركة أو مشروع تجارى .

ولذلك يجب أن نقصى عنها الجمعيات الدولية للسكك الحديدية والتلفزيون والتلغراف وجمعيات النقل عبر الهواء والماء فهذه أقرب إلى الشركات من الجمعيات وكذلك سائر شركات الملاحة البحرية والنهرية وسائر اتحادات البترول وشركات صناعة السيارات .

ولا تدخل فى هذه الجمعيات الجمعيات الأهلية التى يقف نشاطها عند حد الدولة التى تنتمى إليها ، لأن هذه الجمعيات الأخيرة قد تقوم بالتبعية بنشاط خارج حدودها ولكن لصالح البلد الذى تنتمى إليه وليس لها الصفة الدولية .

وقد تعمل على تحقيق اتحاد منها فى مختلف الدول ، وفى هذه الحالة يصبح هذا الاتحاد جمعية دولية غير حكومية ، مثال ذلك الاتحاد العالمى لجمعيات الأمم المتحدة والاتحاد الدولى للعلوم السياسية واتحاد الجمعيات الدولية للنقابات .

وأهمية الجمعية الدولية غير الحكومية لا تقدر وفق الخدمات التى تؤديها للأعضاء الأهليين فى بلد الأصل ، بل إن أهميتها يعتد بها فى حقل نشاطها الدولى ، وإن التعاون بين الأفراد لهذه الجمعيات الذين ينتمون إلى دول مختلفة وما تبذله هذه الجمعيات الدولية من نشاط للتقارب بين الشعوب هما القوة المولدة للرأى العام لهذه الجمعيات ، وأعمالها وقراراتها ومؤتمراتها هى الخطوات الأولى نحو تحقيق رأى عام منظم للشعوب هو قوة بشبه سياسة برلمانية عالمية تقف حجر عثرة فى وجه أطماع الحكومات ومشاحنتها والحرب الباردة والتهديد بامتشاق الحسام لحل المنازعات بين الدول .

وإن الدول والحكومات تفكر فى الحرب وتسعى إلى السلام وهذا ما هو ليس فى صالح التعايش السلمى ، أما الأفراد والشعوب فهم يفكرون فى السلام ويسعون إلى السلام مما يشجع فى سبيل التعاون بين الشعوب .

وان هدف الجمعيات الدولية غير الحكومية لا يقف عندحدود البلد الذى تجتمع الجمعية فيه ولكن مهمة الجمعية محددة بنظامها،وقد تكون أدبية أو اجتماعية أو فنية سياسية فى إطار التعايش السلمى ولكن لا على أساس تجارى ومادى ، وهذه الجمعيات تباشر نشاطها كجمعيات للأفراد الذين من جنسيات مختلفة وقد يجتمعون فى مدينة أو عاصمة معينة بناء على دعوة تحدد مقدماً ويحدد ميعاد الاجتماع وذلك لاتخاذ قرارات بمقتضى ما ترسمه مناهج الاجتماع وما تقرره السكرتارية المختصة ، وقد يكون الاجتماع مجرد مائدة مستديرة أو قاعة بحث أو مؤتمر على نطاق واسع .

وهناك من الجمعيات ما تكون اتحاداً دولياً يضم عدة جمعيات غير حكومية ويصبح اتحاداً أعلى من الاتحادات الأهلية ، والهدف يصبح بلاشك هدف دولى ، وقد انتشرت هذه الاتحادات بعد الحرب العالمية الثانية ، مثال ذلك الاتحادات الخاصة بالملكية الصناعية والفنية والأدبية وسائر الجمعيات الخاصة باتحادات الطلبة وباتحادات مكافحة الرق ، وقد يتحول بعض هذه الجمعيات إلى جمعيات دولية حكومية ، مثال ذلك هيئة مكافحة الرق وهيئة الصحة العالمية والهيئة الخاصة بالملكية الصناعية والأدبيةو الفنية ، وكذلك اتحاد البريد العالمى ، ومكتب العمل الدولى .

وهكذا نرى أن الجمعيات الدولية غير الحكومية هى فى حالات كثيرة الخطوة الأولى نحو تكوين جمعيات دولية حكومية ، وإن نشاط هذه الجمعيات يبشر بامكان اتحاد الناس فى إطار هذه الجمعيات للدفاع عن المصالح المشتركة ولتحقيق التعاون بين الأفراد خارج نطاق الحدود وذلك لا لتحقيق التقدم الفنى والأدبى فحسب ولكن كذلك لمنع الحروب .

وتصبح هذه الجمعيات كما سبق أن شرحنا برلمانات لا على نطاق البرلمانات القومية ولكن برلمانات للرأى العام وللدفاع عن المصالح المهنية ولتقدم الدراسات الفنية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية الدولية وللعمل ما أمكن على حسن توزيع المواد الأولية فى العالم ولرفع المستوى المادى والمعنوى للفرد فى البلدان التى فى طريق التحرر .

وهذه البرلمانات الشعبية لن تؤثر بحال فى إطار الدول ونظم الحكومات فيمكن أن تباشر نشاطها مع الاحتفاظ بالسيادة الدولية والسلطان الدولى من الناحية القومية والدولية ، وكل ما فى الأمر أن اهتمام هذه البرلمانات هو اهتمام بمصالح الأفراد لا الحكومات والنظر للإنسان من الناحية الإنسانية وعدم التقيد بمشاحنات الحكومات وبالحرب الباردة القائمة اليوم ، بل بالعكس محاولة التحول عن هذه الحرب بشق طريق آخر لتقارب الشعوب ، وفى هذه الحالة نرى تحقيق ربيع الشعوب الذى تغنى بها الشاعر « مسترال Mistral

والكاتب « فكتور هيجو » Victor Hugo وامكان أن يمد الناس أيديهم بعضهم لبعض رغم المسافات والآراء التى تفرق بينهم وبذلك يمكن تحقيق الرخاء للناس فى هذا الجو المظلم ، وإنماء ما جاء فى المصطلح الأسبانى المشهور وهو « كونفيفنتزيا » Convivencia أى رغبة الناس فى العيش فى إطار مشترك ملائم لها وهو أساس النظم الاتحادية ، وهكذا يجد الإنسان أرضه الصالحة الخصبة للفكرة الإنسانية فى هذه الجمعيات الدولية غير الحكومية ، ولن يقاسى الناس فى هذه الجمعيات غير الحكومية الكفاح السياسى وتنافس الحكومات والأحزاب وما تتمخض عنه الأزمات الحالية بين الدول ، ويقوم برلمان هو الرأى العام لاينظمه ميثاق دولى أو شعور حكومى ، ولكن تنظمه إرادة الشعوب فى سبيل تعاون خالص لرفاهية الإنسانية ، وهناك قوتان رئيسيتان قادتا العالم هما قوة الشعب وأثر الفكرة ، وان من واجب الإنسانية المتمدينة فى سبيل تحقيق تعاون وثيق بين الشعوب والجماعات والأفراد العمل على انتشار الفكرة ، وان الفكرة الصالحة هى وحدها التى تقود الإنسانية قيادة مجديه .

الفصل الثالث عشر

جماعات التأثير والضغط

Groupes de Pression

جماعات التأثير أو المسماة أيضاً بجماعات الضغط لها أثرها فى الرأى العام والدعاية ويمكننا أن نعرفها بأن نتفهم ماذا يعنى بهذه الجماعة ، وفيما يلى البيان :

جماعات الضغط مجموعة أفراد يتحدون فى عدة صفات تجمعهم بعضهم ببعض مصلحة معينة ولكن لا يرمون إلى تحقيق أرباح تجارية بالمعنى المعروف فى التجارة وإلا تصبح هذه الجماعة فى عداد الشركات ، إنما هى تدافع أساساً عن مصالح وصفات معنوية وقد ترتبط بها مصالح مادية أيضاً ، وهذه الجماعة لاعداد لأنواعها كما يصعب أن تحدد بصفة قاطعة هذه الجماعات المختلفة على أساس مصالحها ، وقد تكون هناك مجموعات من الناس المنتجين أو العمال أو المستهلكين ، وقد تكون هذه المجموعات فيما بينها اتحادات ، وقد تكون هناك مجموعات من المستأجرين أو أصحاب الفنادق أو أصحاب الممتلكات العقارية .

ويجب التفريق بين جماعات المصالح المشتركة وجماعات الضغط أو التأثير وإذا كانت هناك نقابات للمنتجين مثلا فتصبح جماعة تدافع عن المصالح المادية للمنتجين ، اذا بذلت جهودها بوسائلها لتوزيع أعمالها على الأعضاء ، وتصبح جماعة ضاغطة إذا حاولت أن تحصل من السلطات العامة على تنظيم لالتحاق عناصر جديدة فى مهنتها .

وان اشتغال الدولة والسلطات العامة بالمسائل الاقتصادية والاجتماعية ورقابتها لها وشتى أنواع التخطيط — أدت هذه الاتجاهات إلى ازدياد اهتمامها بهذه الجمعيات ، وتضاعف نشاط هذه المجموعات لدى السلطات العامة للدفاع عن مصالحها المهنية .

ونرى بعض هذه الجمعيات بعيدة عن إطار النشاط الحكومى وأخرى لها اتصال بالنشاط السياسى ، ومن أمثلة الأولى الجمعيات الدينية ومن أمثلة الثانية شتى الجمعيات التى تدافع عن مصالح أرباب المهن وصغار الصناع والزراع .

وهذه الجمعيات فى نشاطها ذات التأثير قد تلجأ إلى الرأى العام عن طريق دعاية واسعة لفكرتها أو لمصالحها ، ولكن هذا النشاط هو لكى ينتهى بها الأمر إلى زيادة

تأثيرها على السلطات العامة ، وكان من أبرز هذا النوع من الجمعيات الاتحاد الفرنسى لشمال أفريقيا الذى قام سابقاً بنشاط واسع للتأثير على الحكومة الفرنسية حتى لا تغير النظام السياسى بشمال أفريقيا ، وهذه الجمعيات جل أعضائها من أصول فرنسية أو اوربية ، ومثل هذه الجمعيات تسعى جهدها للدفاع عن المراكز والمزايا المادية التى كسبتها وتكسبها الجماعة وتزيد فى هذه المكاسب ويطلق عليها الهيئات المهنية ، وكذلك للدفاع عن المصالح والمبادىء المعنوية والروحية ، وكثير من هذه الجمعيات لها مثل عليا مثال جمعيات حقوق الإنسان وحماية الطفولة وشتى الجمعيات الدينية كجمعية الشبان المسيحيين ، ويمكن تفسير هذا الوضع بصفة أوسع فى الهيئات المهنية التى تتضمن ثلاث أقسام رئيسية وهى : العمل المهنى للحرف الصغيرة ، والزراعة ، ثم العمل ، وقد تتحد جمعيات كل فرع منها وقد تدخل كلها تحت اتحاد واحد وخصوصاً العمل فقد يخضع لهيئة واحدة تضم كافة العمال ، وفى بعض البلدان الأخرى قد تتحد الهيئات فتضم عمالا ومستخدمين وموظفين ، والمعروف أن التخصص المهنى ينظم هذه الجماعات .

وإلى جانب هذه الجمعيات هناك الهيئات ذات المثل العليا ، وهذه الهيئات تهتم بالأهداف المعنوية التى تسمو بروح الإنسان والتى تدفع عنه الشرور وتدافع عن حرياته ومن أمثلتها : الاتحاد الفرنسى ضد السلاح الذرى ، والجمعية الملكية فى انجلترا للرفق بالحيوان .

وهناك الجمعيات التى تجمع بين النوعين الاثنين المذكورين ، مثال ذلك جمعيات المحاربين القدماء وغرضها توفير وسائل العيش الكريم للذين ضحوا فى سبيل الوطن وفى الوقت ذاته المحافظة على روحهم المعنوية وكيانهم كقوة ومثال يحتذى به .

وعناصر قوة هذه الجمعيات فى القوة الضاغطة لها بعدد الأعضاء ، وبمقدرة الجمعية المالية ، ولعدد الأعضاء أهمية فى النظم السياسية التى يخطب فيها الرجل السياسى ليخاطب الجماهير وليحصل على أكبر عدد من أصواتهم لصف جماعته ، وفى هذه الحالة تتضح بلا شك قوة هذه الجماعة فى ضغطها على السلطة التشريعية ، كما أن مال الجمعية له أهمية فى نشاط أعمال الدعاية والترويج لمبادىء الجمعية لدى الرأى العام والضغط على السلطات العامة فى سبيل تحقيق أغراضها .

الفصل الرابع عشر

الدعاية (البروباجنده)

La Propagande

إن الدعاية إحدى الوسائل القوية لكسب الناس إلى صف أو فكرة أو سلعة أو تجارة معينة ، وقد يخيل إلى المرء لأول وهلة صغر شأنها لما تسلكه من اعلام فى بضع كلمات أو عبارات أو نشرات أو إعلانات أو خطب أو علامات ... الخ قد تكون قد سبقتها غيرها فى هذا الصدد ، غير أنها لا تلبث أن تؤثر فى النفوس وتجتذب الرأى العام ، وتكون منه جبهة لمصلحة مروجها ، والدعاية السياسية هى إحدى المظاهر القوية المسيطرة على حياتنا العامة منذ مطلع القرن الحالى ، ويلاحظ أهميتها فى اتخاذ ألمانيا القيصرية هذا السلاح السلمى وهو أحد أسلحة الحرب الماضية أداة للترويج لأفكارها القائمة على « ألمانيا فوق الجميع » وعلى « السير نحو الشرق » وعلى « المجال الحيوى للشعب الألمانى » وغير ذلك من المبادىء التى كانت تسعى لكسب العطف عليها فى نطاقها الوطنى وخارج حدودها وخاصة بين الجالية الألمانية الأصل فى الولايات المتحدة الأمريكية لتقف حائلا دون اشتراك الجمهورية الكبرى للعالم الجديد فى الحرب فى حالة اشعال ألمانيا القيصرية لها ، وقد نعت لينين الدعاية السياسية بأنها « القوة المحركة بين الشعب على اختلافها » كما قال عنها هتلر زعيم النازية بأنها « ساعدت النازية فى الاحتفاظ بالحكم وأعطتها الفرصة فى محاولة التسلط على العالم والانتصار على سائر الدول » .

ووسائل الدعوة فى سبيل قضية الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى لجر الولايات المتحدة الأمريكية إلى عجلة الحرب ومقاومة الدعوة الألمانية بدعوة مضادة لمصلحة الحلفاء ضد امبراطوريات الوسط ثم تسخير النازية والفاشية قبيل الحرب العالمية الثانية لوسائل الدعوة السياسية للحصول على مستعمرات ومناطق هجرة لأهلها ولمصلحتها — هذه العوامل أظهرت فى وضوح أهمية الدعاية **La Propagande** أو الدعوة السياسية .

واتخذت الدعاية أى البروباجندة **La Propagande** طريقا هامة واتسعت اتساعاً لا مثيل له نتيجة تقدم العلوم الاجتماعية والسيكولوجية التى أدت بنا إلى تفهم

نشاط الإنسان وآثار هذا النشاط فى الحياة الاجتماعية أكثر من ذى قبل، ويمكن أن نقسم الدعاية إلى قسمين رئيسيين : التقليدية والحديثة ، وفيما يلى البيان :

١ — الدعاية التقليدية La propagande Classique : —

ويعنى بالدعاية التقليدية التى تتخذها الحكومة لتقنع محكوميها بوسائل إطاعتها وضرورة هذه الطاعة ، وهى فى هذه الحالة تتبع وسائل الاقناع لا وسائل القمع والضغط ، ولكن فى الواقع فإنها تتخذ من الإقناع طريقاً غير مباشر للتأثير على الجماهير والضغط عليها مما حدا إلى أن بعض الكتاب أطلقوا على عمليات الاقناع هذه « عملية اغتصاب فكر الجمهور أو انتزاع رأى الناس بالقوة » والحكومة لا تتبع وسائل القوة والتهديد لكى تصل إلى هذه النتيجة وإلا أصبحت المسالة مسألة ضغط مما لا تريده ومما يبعدها عن الهدف الأساسى وهو عدم الإشعار بالضغط لأن هذا لا يتفق مع فكرة الدعوة ، والخلاصة ان على الحاكم أن يكون لبقاً وأن يلوح بقوته دون أن يستخدمها أو دون أن يهدد باستخدامها

وقد تتبع الحكومة وسيلة تضطر إليها لكى تجتاز صعوبة فتظهر القوة بينما أنها لا تحكم عليها ، ولكن لضرورة عندها تظهر هذه القوة ، مثال ذلك أنه لكى ينجح أحد حكام سيفيليا Séville من أعمال أسبانيا فى أن يمنع ثورة العمال فى سيفيليا ضد انقلاب فرانكو فإنه لجأ إلى سيارتين من سيارات الجيش محملة بالجنود المراكشيين المحدودى العدد الذين يتبعون مراكش الأسبانية وأخذ يجول بهما شوارع المدينة لكى يخيف العمال ولم يكن لديه من القوة والاستعداد ما يمكنه من قمع الاضطرابات ، وفعلا لجأ إلى خطاب فى الإذاعة يقول فيه ان لديه آلاف الجنود على استعداد وهم فى الثكنات للنزول إلى الميدان إذا دعت الحال ، كما قد تكون الدعوة لا عن طريق التلويح بالقوة بل فى محاولة التأثير فى الجماهير عن طريق الإعجاب وتقدير فكرة معينة أو الإشادة بهذه الفكرة أو بقوتها الطبيعية أو غير العادية .

وهكذا تحل هيبة الفكرة محل الإرهاب المادى ، وعموماً فإن كافة الوسائل التى يتبعها الحكام لكى يقوموا ويدعموا مراكزهم وسلطانهم وكيانهم هى لا تخرج عن أنها وسائل دعاية ، مثال ذلك تتويج الملوك ومبايعة الشعب للزعماء وثقته بناء على الدعوة فى أنهم لا يخطئون وما يتبع ذلك من أبهة الحكم وزركشة وبريق الملابس الرسمية وسائر الشارات والنياشين .

ولكن الدعوة لها أهميتها واتجاهها الهام فى إقناع المحكومين بأن حكومتهم أحسن حكومة ، وأنهم سيعيشون سعداء فى ظلها وأنها أفضل من أية حكومة أخرى لأنها تنشر العدل والخصب والرخاء والمساواة والحريات والعدالة الاجتماعية .

ولكن يجب ألا يفوتنا أن الحكومات فى الدعوة لهذه المبادىء لا تتبع وسائل منظمة دائماً ولا تلجأ إلى متخصصين ، إلا أننا نلاحظ أن الكتاب والفنانين والمثقفين يقومون بنشاط ملحوظ فى هذه النواحى ، ولا ننسى أن فردريك الأكبر والامبراطورة كاترين قيصرة روسيا التجآ إلى فلاسفة القرن الثامن عشر لنشر الدعوة لحكمهما ، كما أن الكنيسة لم تغفل الدعوة للدلالة على سلطانها ، كما أنها كانت مصدر ارهاب للعواهل والاباطرة ، وان وقوف الامبراطور الألمانى لأسرة الهاهنشوفن أمام حصن كانوسا Canossa فى القرن الحادى عشر الذى كان يحتمى فيه البابا فى شتاء قارس وهو يطلب منه المغفرة والصفح وهو عارى الرأس حافى القدمين ومعه ابنه الصغير أكبر دعوة لقوة البابوية فى ذلك العصر .

كذلك لجأ الملوك حتى الذين جاءوا على اكتاف الشعب إلى التتويج بواسطة البابا ، فإن نابليون الأول الذى نادى به الشعب امبراطوراً على الفرنسيين وهو ربيب الثورة الفرنسية وأحد قادة جنود الثورة وكانوا ينعتون « بشحاذى المجد » لم يثلج صدره إلا حينما حضر البابا إلى فرنسا وأقام مراسم الاحتفال بتتوجيه امبراطوراً على الفرنسيين فى نوتردام فى باريس وكذلك تتويج الامبراطورة جوزفين زوجته كامبراطرة على الفرنسيين .

٢ — الدعاية الحديثة :

إن الأفكار الحديثة القائمة على سيادة الشعب والسيادة القومية وأن الشعب مصدر السلطان والتى جاءت فى أعقابها بالتصويت العام بلاقيد مالى مع الانتخاب المباشر يضاف إلى ذلك انتشار التعليم ، وبدء خطوات العدالة الاجتماعية — هذه العوامل أدت إلى الاقتناع بأنه لم يصبح تطبيق الدستور وما يتبع ذلك من الاعتراف بحقوق الإنسان وصياغة القوانين على هذا الأساس ضيق النطاق فى دائرة طبقة واعية فحسب بل صار أو تعين أن يكون الوضع عاماً لصالح الجماهير ، ونجحت الدعوة للجماهير بوسائلها المختلفة التى استنبطها الأمريكيون واتبعتها الشعوب الأخرى فيما بعد مما حدا إلى الأخذ بهذه الوسائل فى الميدان السياسى أيضاً .

والدعوة من الدراسات والوسائل المعقدة ويمكن أن نتفهم روحها فى بعض النقاط الآتية :

(ا) تبدأ الدعوة La propagande بتوكيد أنها مباشرة بالقول مثلا بأن كل ما تعمله الحكومة طيب وكل ما يعمله الفريق الآخر من المعارضة ردىء ولتسر على هذا الأساس ناحية بيضاء هى أعمال الحكومة والناحية الأخرى سوداء هى

المعارضة ، وليس هناك وسط بين الاثنين ولا اتجاه إلى المناقشة وذلك خوفاً من التمادى فى ذلك ولا يعلم بنتيجة النقد ، ولا تفسح أبواب النقد بأى حال من الأحوال .

(ب) وبناء على ذلك فإن صعوبات الدعوة تجعل هناك كباش فداء أى الذين يجب أن يضحى بهم فى سبيل نشر الدعوة وهم الذين يعتبرون ظلماً أنهم يمثلون الشر كله إذ أن الحكومة فى الدعوة هى الخير كله ، وقد يكون هؤلاء المعارضة كما كان الأمر عند النازيين فى مواجهتهم الشيوعيين ، كما قد يكون هؤلاء المنبوذون أو كباش الفداء من الطبقة البورجوازية أو الارستقراطية عند الشيوعيين وهكذا ، أو هم مع الأسف ومع احتفاظ العرب بحقوقهم الكاملة فى مواجهة المعتدى والاستعمار وأذنابه من الصهاينة الجالية العربية فى فلسطين المغتصبة أى إسرائيل .

(ج) ويعنى بالدعوة La propagande التى تقوم دائماً بالمناداة بتحسين متواصل لحالة المواطن وهذا المفهوم من الدعوة الحقة إلى حيث ينادى فيها مثلا بأن السعادة الكاملة فى اتجاه معين وبذا تبرر التضحيات المفروضة على المواطن حالا لبناء مجتمع سعيد فى المستقبل ، مثال ذلك ما كان يقال دائماً فى ألمانيا النازية فى أن المدفع قبل الزبدة ويقصد بذلك فتح أبواب الجنة بالمدفع للنازية للتمتع مستقبلا بالسيادة على العالم وبصدارة الشعب الآرى على بقية الشعوب ، وهى تعتمد على الغريزة الإنسانية وطبيعة البشر فى أن يغرى الإنسان نفسه بالأمل فى المستقبل الزاهر وأن يعمل اليوم كادحاً لتحقيق الخير آجلا .

(د) وتعتمد الدعوة على مصطلحات معينة تكون باستمرار فى الصحف وفى الكتب وفى الإذاعة فى الستار الفضى وفى الخطب كما تستخدم طائفة من الصور للرؤساء والزعماء والقادة تنتشر فى مختلف الجهات فى الحرائط وفى الفترينات وفى المنازل وذلك لادخال الفكرة فى العقول مباشرة حتى تتأثر بها الوجوه التى تراها باستمرار ، مثال ذلك نشر صور خاصة بالعرب اللاجئين لبيان مدى الكارثة وصور أخرى مع دعايات واسعة لآثار النوبة بغية التحمس لانقاذها .

(ه) إن الدعوة لا تلجأ إلى الذكاء دائماً بل هى تلجأ كذلك إلى العاطفة وإلى عوامل كالكبرياء القومية والروح الثورية والزهو الوطنى والأحاسيس الخاصة بالاتحاد والدفاع عن البلاد وبكراهية فئة معينة مستغلة مثلا وأن المنطق لا يلتجىء إليه إلا لاقناع قلة من الطبقات المثقفة بينما أن الجماهير وسواد الناس تسوقهم العاطفة . وتحتوى الدعوة أو البروباجندة — وهذا يدل على قوتها — على عامل روحى ويكاد

يكون شبه دينى له أثر كبير فى أن يجعل من الشعب قوة للنهوض بالفكرة وكأنها شبه مقدسة ، وتجعل الفرد يقدس زعيمه ، وهذه الدعوة بمثابة العقيدة وتجعل منها قوة لارد لها على سائر عوامل المنطق والاقناع وتتخذ من بعض العناوين الضخمة أموراً يسلم بها دون نقاش فيها مثال ذاك عبارات « الدولة أنا » و« الامبراطورية هى السلام » و « الرأسمالية » و« من لا يعمل لا يأكل » و « دكتاتورية البروليتاريا » و « نقاء العرق » و« السلطان العنصرى » و« الجنس الآرى سيد الأجناس » و « ألمانيا فوق الجميع » و « احكمى يا بريطانيا احكمى » و« حق الامتلاك سرقة » و« الحديد والدم » و« السلام والأرض » و« يا عمال كافة البلدان اتحدوا » ... الخ ، وما انتشر عندنا فى أوج الحزب الوطنى « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » وما ذاع فى أعقاب ثورة سنة ١٩١٩ رداً على إعتداء الغاصبين على ديارنا « الاستقلال التام أو الموت الزؤام » ، وما صار عقيدتنا بحق اليوم « الزحف المقدس » و« الانطلاق » .. الخ ..

وتختلف فى هذه الحالة وسائل الدعاية من بلد إلى آخر ومن شعب إلى شعب ومن نظام إلى آخر حسب حاجات الدعاية وحسب الأهداف ، والدعوة فى البلدان الفاشية تختلف عن الدعوة فى البلدان الشيوعية وتختلف عن الدعوة فى البلدان الغربية ، وكذلك تختلف عن الدعوة فى البلدان النامية تبعاً لأن الاهلين هناك يعيشون على الفطرة ، ويتعين أن تستخدم وسائل الدعاية البدائية للتأثير فى جمهرة الناس ، وكلما ارتقى المجتمع فى ثقافته وتفكيره كلما تعقدت وسائل الدعاية وإذا أمكن اجتذاب جماهير من الذين يعيشون على الفطرة فى الأكواخ فى أواسط أفريقيا أو فى الأمازون وإغرائهم بحفنة من الملح أو بأدوات بسيطة من الزينة أوبكميات من الودع فإنه يصعب استخدام هذه الوسيلة فى مجتمعات بلغت درجة رفيعة من التعليم ، وإذا كانت الدعوة قوية لسياسة معينة بين فريق من اللاجئين ومن المشردين لتوزيع مأكل أو ملبس عليهم من جمعية من الجمعيات المدنية أو السياسية أو الخيرية فإنه يصعب اتخاذ هذه الوسيلة فى مجتمع يتمتع بالرخاء .

الفصل الخامس عشر

أنواع الدعاية والاعلام

إن الدعاية تصل إلى الإنسان عادة عن طريق السمع والبصر فى الخطب والأقوال والمقالات والرسوم والمناظر والمعاملات والرموز ويضاف إلى ذلك اللمس والتذوق والشم ، والدعاية بأدواتها موصل من شىء معين يستخدم للترويج إلى ذهن الإنسان الذى يتأثر بما يسمعه أو يراه ويحس به فينقاد إلى الدعاية أو ينصرف عنها وقد يحاربها إذا رأى فيها الاضرار بمصالحه أو بالصالح العام .

وقد تكون الدعاية مجرد رمز بسيط يهدف إلى فكرة معينة سرعان ما يتأثر الإنسان بتكرارها خصوصاً إذا كانت الدعاية سياسية ، مثال ذلك هلال الامبراطورية العثمانية والمطرقة والسندان للشيوعيين والصليب المعقوف للنازية والأسود والابيض والأحمر مع النسر للجمهورية العربية المتحدة ... الخ ..

وأداة الدعاية هى المادة التى يلجأ إليها صاحب الدعوة للترويج باستخدامها لتحدث أثرها كموصل كهربى للفكر ، وقد يكون الموصل هذا سريعاً أو بطيئاً حسب وسائل استخدامه والحاجة إلى أثره السريع أو التدريجى ونفاذ الدعاية إلى المرء عن طريق حواسه وقوة إداراكه للأمور والحكم عليها ومدى ما يتمتع به من حريات ، وقد تذهب الدعاية من القول والكتابة والإشارة والرموز والصور المختلفة والاستعراضات للتأثير عن طريق الأذن والعين إلى اللمس والذوق والشم خصوصاً فى الدعاية التجارية ، وكثيراً ما نشاهد فى الأسواق والمتاجر دعوات التجار إلى لمس بعض أنواع الأقمشة للحكم عليها ومدى دقة صنعها ونعومة الحرير ، وكذلك كثيراً ما نشاهد فى المعارض والأسواق الكبرى فى عواصم الغرب وغيره دعوة الجمهور لتذوق الأنبذة أو تذوق الحلوى أو تدخين نوع من السجائر وهذا نوع من الإعلان عن البضاعة للتعرف على حقيقتها ، ويتحقق هذا الإعلان بإدراك صاحبها الوسيلة الناجحة وكيف تستخدم فى الظروف الملائمة وما يصلح دعاية فى شأن من الشئون التجارية لا يصلح للدعاية الانتخابية مثلا ، وما يصلح لشعب شديد التأثر بالألوان الزاهية كالأقشمة المزركشة والخرز والودع وهو على الفطرة لا يصلح لشعب عريق فى المدنية والتفكير .

ويمكننا لمس الدعاية التجارية والاجتماعية فى العلامات التجارية والرسوم والنماذج التى تسجل محلياً وقد تسجل دولياً للإعلان عن السلع وتنبيه المشترى إليها وفى أنواع ملبوسات الموضة واستعراضات الأزياء وطريقة قص شعر النساء وتسريحاتهن وارتداء القبعات ، وتتنوع وتتطور الدعاية فتحوز مثلا موضة معينة لتصفيف شعر كليوباتره قصب السبق على غيرها ، كما قد تنفق الشركات التى تخرج قصة معينة فى السينما الوفير من المال فى سبيل لفت النظر إلى القصة بأنواع الدعايات التجارية وتبادر بالاعلان عنها فى التلفزيون وغيره ، وتختلف العطور باختلاف السيدات مما يجعل عملية الدعاية شاقة ، فالشقراء الرقيقة يناسبها عطر مختلف عن عطر السيدة السمراء السمينة ، وهكذا .

وقد لجأت بيوت الملابس وأدوات الترف تبعاً لاختلاف الذوق وضرورة إجابة كل حسب ميوله إلى وسائل دعايات شتى تنفق فى سبيلها المال بلاحساب لتكسب أضعافه ، ويكفى أن نشير إلى استعراض الأزياء وفساتين السهرة والبحر وملابس العمل وتناول الشاى بعد الظهر والإعلان عنها ونشرها على غلاف المجلات للفت الأنظار .

وليست مسابقة الجمال السنوية لاختيار أجمل فتاة فى العالم أو مسابقة فتاة الغلاف الانوعا من الدعاية بطريقة غير مباشرة فى ميدان الأزياء والموضة ، وهذه المسابقات تستخدم فيما بعد لعرض الأزياء وللأعلان عنها وعن العطور وغيرها وعن البيوت التجارية ومحلات الأزياء ، وكثيراً ما تستخدم فرق من الفتيات الرشيقات والموسيقات للدعاية السياسية وخاصة فى الحملات الانتخابية فى الولايات المتحدة الامريكية .

والدعاية السياسية أهم أنواع الدعايات ولها أثر بالغ فى الانتخابات والترشيحات وكسب الأصوات وتيار الرأى العام فى صف الحكومة وتستخدمها المعارضة كذلك فى سبيل تقوية دعائمها والوصول إلى الحكم ، وللدعاية السياسية أثرها أيضاً فى الضغط على الحكومة بالاستجابة إلى مطالب الشعب وقد تستخدم النقابات أو جماعات التأثير والضغط ، وخططها لا تختلف كثيراً عن سائر وسائل الدعاية ، فقد تكون بالخطابة أو بالنشر أو توزيع المنشورات أو الكتيبات والصحف والمجلات أو عن طريق الإذاعة أو التلفيزيون ... الخ .

ونجاحها يتوقف على التأثير فى الجماهير فى الوقت المناسب والضرب على الوتر الحساس الذى يمس صميم العاطفة والشعور ، وتستخدم الدعاية السياسية كما ذكرنا نفس الوسائل التى تستخدمها سائر الدعايات ، وتستعمل عادة القول والكتابة والصور والاستعراض بل والموسيقى والحفلات الغنائية وغيرها للترويج لمرشح معين فى الحملات السياسية ؛ ونشاهد هذا بوضوح فى الانتخابات الرئاسية فى الولايات المتحدة الأمريكية وسائر الانتخابات .

وترجع الدعاية السياسية إلى أقدم العصور فرأينا قديماً النار توقد فى قمم الجبال والروابى لترشد إلى العمران ، ولتدل القبائل والضيوف على أن فى هذه البقعة المعينة أصدقاء وعمران، ومن أهم أدوات الحماس واستنهاض الهمم رقصات الحرب القديمة وهى لا تزال عند القبائل البدائية ، ونرى اليوم ما يشبه هذا فى الموسيقى العسكرية ونقر الطبول لشحذ الهمم وبث الحماس ، وتستخدم القبال البدائية عمليات إحداث أصوات تلقى الرهبة فى النفوس شبيهة بأصوات الليوث ، ونذكر من وسائل الدعاية أيضاً الأعلام والرايات كعلم سفينة القرصان الذى يغلب فيه السواد الذى يحيط بجمجمة آدمية ، وقدكانت الآثار القديمة ولا زالت دعاية سياسية للحضارات الغابرة كالاهرامات وأبى الهول والمعابد والهياكل التى تكسوا الوجه القبلى ووادى الملوك ، وكلها قوة دعاية لحضارة مصر القديمة وفراعنتها وشعبها الذى بلغ الذروة فى المدنية فضلا عن أنها كنز من كنوز الحضارات وخير دعاية للسياحة وتضفى قوة على الحياة السياسة وتتحول إلى دعاية سياسية لصالح أربابها ، وكل من رأى المسلة المصرية فى ميدان الوفاق بباريس تبرز عظمة حضارة قدماء المصريين تتجه أنظاره إلى وادى النيل وشعبه العريق وخاصة أن هذا الميدان أصبح اليوم ملتقى العالم ومورد السياح ، وبالمثل من يتفقد آثار انس الوجود يرى فيه خير دعوة لمصر وتاريخها القديم حيث أن ما عليها من نقوش وما على المعابد من رموز لامعة يدل على عظمة الفن فى ذلك الوقت .

ومن أهم الدعايات اليوم الإذاعة نظراً لأثرها المباشر فى النفوس عن طريق الاستماع إليها فى نماذج مختلفة قد تكون فى محاضرات مبسطة ومصحوبة بالموسيقى أو قطع مسرحية وروايات ، كما قد تؤيد بالصور عن طريق التليفزيون ، وهى سلسة سهلة إذ تصل إلى المرء فى مخدعه وبين أسرته فى منزله أو فى مكتبه ولاتقطع عليه استمراره فى حياته العادية ، وفى هذا سر نجاح الحكومة فى بسط وجهة نظرها عن طريقها نظرها لأهمية هذه الدعاية فى تثقيف الشعوب وفى بث فكرةمعينة فيها وفى جلبها فى صفها وفى سهولة أن تشرف عليها فى إدارتها مباشرة أوبفرض رقابة دقيقة عليها ،وهى على أى حال تنظم برامجها وتوجهها إلى مبادئها السياسية والاجتماعية وتلجأ إليها الحكومات أيضاً لحث الشعوب على الجهاد إذا احتدم الجد وإذا نزلت بالبلاد محنة ، وتعلن بواسطتها التعبئة وتهيب الحكومة بالأمة أن تتكاتف فى سبيل النصر ، وهى تنفذ إلى قلوب الأطفال والشباب لبث مثل الحكومة العليا بوسائل مبسطة إلى نفوسهم .

وتتضح خطورة الدعاية فى اهتمام الذين يسعون إلى أخذ الحكم إلى الاستئثار بها بكل قواهم وهم يخشون بأسها ويحولون دون استخدامها بواسطة الخصوم لاتهامهم ومهاجمتهم ، وتتخذ الإذاعة وسيلة لإعلان الأخبار أولا بأول وزف الأنباء السارة والبشرى للشعب

اليزيد تحمسه لحكامه ، كما يلجأ إليها المسئولون لإقناع الطبقات المثقفة بالوسائل السريعة على تقدم بعض الأبحاث العلمية الهامة .

والإذاعة أيضاً أداة ترف وهذا مايحبب الجماهير فيها ويجعل منها قوة سياسية فهى تعرض برامج للتسلية تعقبها الدعاية السياسية أو العكس ، وقد تستخدم الدعاية بطريقة سلبية للإجابة على هجمات سياسية خارجية قاسية عن طريقها كما نرى فى الحرب الباردة ، وكما رأينا فى الصراع بين الفاشية والديمقراطية قبل الحرب العالمية الثانية وأثناء هذه الحرب أيضاً .

غير أن الدعاية سلاح ذو حدين فهى تستخدم لصالح جهة تلجأ إليها كما قد تنقلب ضدها إذا استعملت استعمالا ضاراً أو وضعت فى غير موضعها أوبولغ فيها فسرعان ما يمجها الجمهور ومن يقوم بها وبأصحابها .

والدعاية تفيد من الناحية القومية ويمكن استغلالها لصالح الحكومة أوالسياسة وتستخدم أيام الذكرى والاحتفالات بها ، وقد تكون هذه الذكرى جميلة، وتتخذ أساليب الطرب والأغانى ويمكن فى ظلها القيام بدعاية واسعة النطاق ، كما قد تستغل ليوم من الأيام فى الذكريات الأليمة ، ويمكن فى هذه الحالة حث الناس على الأخذ بالثأر.

ومن أقوى أسلحة الدعاية أيضاً الصحافة والمجلات والنشرات لإبراز الأفكار السياسية والاجتماعية وتوجيه الشعب . . الخ ، وهذا ماحدا إلى قيام صحافة لكل حزب من الأحزاب السياسية وبجوارها المجلات والنشرات التى تصدرها من آن لآخر أثناء الحملات الانتخابية والمؤتمرات الحزبية إلى جانب الكتابة والمقالات لبسط وجهات النظر فى الإصلاح ومهاجمة برامج الخصوم .

وهناك الدعاية بواسطة الصور التى تظهر فى وضوح الوسط الذى يراد الدعاية له وتصبح تسلية وتفسير ، وقد تصل هذه الدعاية إلى عرض برامج على المسرح أوفى فى السينما .

وقوة الصحافة وسائر النشرات هى فى انتشارها بالملايين من النسخ وصدورها دوريا واستمرار تأثيرها على الجماهير وميولها الحزبية مما يضفى عليها شخصية معينة وتصبح هناك صحافة اليمين واليسار والرجعية والتقدمية ، ويقتنى مختلف طبقات الأمة الصحف التى تتفق وميولها أو صحف الخصوم لمعرفة آرائها وهذه الصحافة إحدى الصور القوية فى عصرنا الحالى بما تتناوله من المستطرف من الحوادث إلى حد الفضائح مما يزيد فى تهافت الناس عليها ، وهذا مايحدو بالحكومة إلى وجوب مراقبتها لتصبح أداة بناء لاأداة هدم

للثقافة وحتى ترفع عن الدعاية القائمة على المبالغة والنيل من حياة الرجال الخاصة وتشويه الحقائق التاريخية، ومن أهم أزمات الضمير اليوم أزمة الصحافة الرخيصة التى تريد كسباً سريعاً على حساب تدنيس سمعة الناس ، وهذا مايبرر أن الحكومات وفى مقدمتها حكومتنا تعمل على وجوب أن يتحلى الصحفيون بالخلق النبيل الكريم حتى لاتؤدى أزمة الضمير عن طريق الصحف إلى تقويض الخلق السياسى للشعب .

وهناك شتى التعبيرات بالقول والخطابة غير الصحافة وقد تكون مجموعة صيحات لتهدئة الخواطر وانقشاع غيوم الأزمات السياسية وقطع العلاقات والحروب ونذكر حركة رئيس الحكومة البريطانية « شامبرلين » فى مطار لندن حال عودته من اجتماع ميونيخ سنة ١٩٣٨ وهو يلوح للشعب بورقة فى يده هى وثيقة اتفاق تلافى الحرب مع ألمانيا ، وقد تكون بخطب رنانة تحدث ثورة فى الشعب بمعانيها ، وهذا النوع من الخطب كان من أقوى أدوات الدعاية عند النازية والفاشية ، وقد كان يشق تصفيق عشرات الآلاف من المستمعين عنان السماء وقد استمتعوا بعبارات هتلر وموسيلينى فى قوة إيمانهم بالعقيدة وتفانيهم فى الدفاع عن المثل العليا للدولة ، والخطباء موضع إعجاب الجماهير على مر العصور وقد احتوت المدنية الإسلامية عدداً كبيراً منهم وكان لهم شأن كبير فى إعلاء شأن العرب .

وقد تسجل أفكار الفلاسفة ورجال الفكر فى مذكراتهم ومؤلفاتهم وماكتب عنهم ولكن لاتنزل إلى ميدان التطبيق إلا عن طريق الدعاية والترويج لها وبثها فى النفوس حتى تصادف هوى وتصبح مذهباً سياسيا شعبيا يعتنقه الناس فيتفانون فى سبيله .

كما نذكر أن الحكومات على اختلافها والأحزاب السياسية تعتمد دائماً على قوة الخطباء وسحرهم للجماهير وقوة البرامج وقد كانت الاشتراكية دائماً أفكاراً فلسفية سامية سجلها المفكرون فى مؤلفاتهم ومدنهم الفاضلة ومثلهم من أفلاطون إلى ماركس ولكنها لم تصبح مذاهب سياسية هامة إلا باقتناع الجماهير بها عن طريق الخطب فى العمال واجتماعاتهم للدفاع عن حقوقهم وتنظيم وسائل المطالبة بالأجور الدنيا وتحديد ساعات العمل وإقامة عدالة اجتماعية تجعل من المساواة السياسية حقاً جديراً بها .

وكذلك للكتب أهمية كبرى فى الدعاية فقد اخترع جوتنبرج فى القرن السادس عشر وسائل الطباعة والنشر المبسطة التى تكتب لفئة معينة ، ولا يقل أثرها عن أثر الإذاعة أو عرض الصور ، والكتاب صديق المرء وعرفت أهمية الكتب منذ العصور القديمة ، نذكر كتاب الموتى عند قدماء المصريين وما احتواه من أفكار فلسفية .

وهناك الكتب المقدسة ومخلفات المدنية القديمة وما جاء فيها من الآيات وتفسيرها ، وما جاء به الرومان وأهل الهند وبعضها له أثر عميق ليومنا هذا وترجمت إلى شتى اللغات مثال ذلك « كليلة ودمنه » الذى ترجمه ابن المقفع إلى العربية وترجم إلى لغات أخرى كما كان نبراسا لاقتباس الكثير من القصص الصغيرة على لسان الحيوان ، وأهميته بما يحتوى عليه من الحكم السياسية والاجتماعية والعظات التى يجب أن يتحلى بها الساسة ليحسنوا قيادة الشعوب ، ومن الكتب الحديثة التى صادفت إقبالا كثيراً الكتب التى تقيم حريات الإنسان والقصص التى تطالب بتشريعات انسانية وتنحو ناحية اشتراكية على أساس المثل العليا كقصة « البؤساء » لفكتور هيجو ، ومن الكتب التى صادفت رواجا لم يسبق له مثيل فى التاريخ وكان رواجه تبعاً للحمى السياسية التى سادت ألمانيا منذ فشل حركة الانقلاب النازى والحكم على هتلر بالاعتقال ثم محاولة أخذ الحكم عن طريق البرلمان والوسائل المشروعة كتاب « كفاحى » Meine Kampf الذى ألفه فى الاعتقال فهو دعاية سياسية واسعة النطاق وترجم إلى عدة لغات حية ، وقوة دعايته تفوق قيمته العلمية ، ومرجع ذلك أن كاتبه شخصية مشهورة عاد بألمانيا مؤقتاً إلى عظمة سياستها الأولى قبل الحرب العالمية الأولى وعمل على التملص من معاهدة فرساى ، وتميزت دعوته بالروح البروسية مما ضمن نجاحه وتقلده الحكم سريعاً بالطريق المشروع هناك ، وكما سبق أن شرحنا أهمية الدعاية السياسية هى فى استخدام شتى الوسائل المشروعة فى صالح الحزب أوالمرشح أوالحكومة أورجل السياسة أو الرأى العام وفى اجتذاب الناس إليها والنفاذ إلى عقولهم وقلوبهم ، وقد تستخدم كل دعاية على حدة كما قد تشحذ شتى الأدوات للقيام بحملة ناجحة تضرب ضربتها الصادقة للانتصار على الخصم على أن تصبح غايتها عقب ذلك تعبئة دعوة كاملة وكلها رجاء فى المستقبل حتى لاتخيب آمال الشعب فى الدعاية.

ولا يفوتنا فى هذه المناسبة أن نذكر أن من أقوى الدعايات الصادقة عندنافى ثورتنا الناجحة أدوات الدعاية الشتى والمتعاونة التى تستعمل بانتظام وتلقن الشعب مبادئ القيادة الجماعية الاشتراكية والتعاون والحياد الإيجابى وعدم الانحياز واتحاد العرب ووحدتهم وضرورة العمل والسير فى مرحلة الانطلاق وما بعدها ، وماتبرزه هذه الأدوات فى عملها المشترك من أن الحقوق يجب أن تصحبها واجبات أيضاً ، ومراعاة أرباب الأعمال ورجال القيادة والقيادات الجماعية هذه المبادئ وان تلقن للشعب فى الصحف وعن طريق الوزارات المتخصصة وفى الإذاعة والتلفزيون ، وتتوج كل هذه الاتجاهات السليمة المختلجة حماسا ووطنية وتعاليم انسانية شعبية ديمقراطية عربية – تتوجها الاشتراكية وخطب الرئيس والميثاق الوطنى لسنة ١٩٦٢ وما جاء من مبادىء فى كتاب « فلسفة الثورة » ، ونصوص الدستور المؤقت لسنة ١٩٦٤ .

الفصل السادس عشر

أدوات الدعاية والرأى العام اليوم

منذ أوائل القرن الحالى ونتيجة للثورة الفنية التى تناولت الصحافة والمجلات والنشرات مع ظهور أهمية الصور والسينما وانتشار استخدام الراديو والتليفزيون هذه العوامل أدت إلى تطور خطير فى اتجاهات الرأى العام وفى تكوينه من الناحية الفنية ، وبالتبعية فى علاقة الدولة بالفرد وفى النظام القانونى أوالتشريعى فى تكوين الرأى العام ورقابته .

ومن أوضح مانراه حاليا التغيير الكلى الذى دخل على مشكلات العلاقات بين الفرد والدولة فيما يتناول التعبير وايضاح الفكرة الإنسانية أوبعبارة أخرى فى تكوين الرأى العام .

وقد كان الرأى العام فى القرن التاسع عشر يركز بحث مشكلاته فى علاقة الفرد بالدولة وتتضح فى هيئة كفاح وانتصار للحرية ،وكان الجو السياسى موجاته الكهربية لتشجيع فكرة الفردية والحرية المطلقة ، وانتشار الفكرة الإنسانية مع نشر التطورات الفلسفية والسياسية والاجتماعية ، وهذا أبرز صور الكفاح طوال القرن الماضى ، وقد شحذت فى سبيله المشاعر والعواطف الإنسانية ، وحفزت نحو قيام الثورات المتعاقبة .

وكان هناك سلطان يدعى فرض إرادته واسمه القوية ، والإنسان تجاهه يطالب بحقوقه ويعمل بكافة الوسائل على انتصار حرية الرأى وما يعتقد أنه الحق ، ويسعى فى سبيل قوله ما يريد وكتابته ، وطبعه مايشاء على أن يطلع عليه الخاصة والعامة ، وقد عبر عن هذا فى إعلان حقوق الإنسان فى دستور الثورة الفرنسية والذى أصبح المادة الثانية فى الدستور الأمريكى ، وهو حرية الرأى بكافة الطرق ، وأصبحت بعد كسب الشعب حرياته منذ الثورة الفرنسية فى صميم حياة الجماعات السياسية .

وحرية اتصال الأفكار والآراء بين الناس من الحقوق التى تعد أثمن شىء لدى الإنسان فكل مواطن يمكنه أن يكتب ويعبر ويطبع فى حرية تامة ما يريد ، وكان هذا انتصاراً للمبادىء الفلسفية والأفكار الدستورية منذ آخر القرن الثامن عشر .

وانتقل هذا إلى الحقائق الملموسة التى تناولت صراع الفرد فى مواجهة الدولة فى سبيل كسب الحريات ، غير أن هذه المشكلة مثلا اتخذت وضعاً آخرا فى عهدنا الحالى نتيجة الاختراعات والتطور الفنى الذى تناول نشر الفكرة ، فإن الفرد تنحى عن المعركة كعامل فعال فيها ولم يصبح الصراع بين الدولة والأفراد أوالجماعات المتحدة ، ولم تعد المسألة مسألة حرية وإنما محاولات للسيطرة بواسطة جماعات وهيئات معينة أو بواسطة الدولة على الوسائل الفنية لتكوين الرأى العام .. ونجد أن هذا التطور الفنى هو السبب الأساسى للتغيير الذى قلب الأوضاع رأساً على عقب فيما يتناول توجيه الرأى العام .

وحينما عبر رجال الثورة الفرنسية عن هدف إعلان حقوق الإنسان وعن الحقوق القانونية أو السياسية فى سائر الدساتير منذ ١٧٨٩ أصبح الوضع إن كل فرد له أن يكتب أو يعلن أو يقرأ ما يشاء فى حرية ، وحينما أقام الحريون فى القرن التاسع عشر المتاريس فى الشوارع لكى يجعلوا هذه الحرية فعالة لم تكن هذه التصرفات مجرد أمانى وخيالات بل كانت حقائق إذ أن الوسط الاجتماعى كان يقضى بأن كل فرد يمكنه أن يكون رأى بانتقال الكلمة من أذن إلى فم إلى أذن وكان يكفى فى ذلك الهتاف أو إقامة إعلانات الدعاية فى المدن الكبرى ، ويكفى أن نشير إلى أثر نشيد المرسيليز الذىانتشر من مارسيليا إلى ستراسبورج إلى باريس وذاع فى فرنسا بأجمعها ثم عبر الحدود إلى شتى بلدان العالم ، وهو يعبر عن أمانى شباب ذلك العصر ، وكانت الصحيفة مجرد نشرة بسيطة لا تحتاج إلى رؤوس أموال وليست بالعملية التجارية المترامية الأطراف والدقيقة ، ولم يكن هناك بين الفكرة وحرية نشرها إلا عقبة واحدة وهى سلطان الحكام وما قد يسمحون بنشره أو يحرمون نشره مع ملاحظة أن تصرفاتهم كثيراً ما تخالف حقوق الإنسان وحريات ذلك الوقت ، وكانت المسألة أن كل فرد يمكنه أن ينعم بحرية القول بمجرد ما يستطيع أن يتخطى حواجز وعقبات السلطة العامة مادام عمله فى حدود المبادىء العامة للقانون .

أما اليوم فإن صوت الفرد المنعزل والذى لا يدخل فى نطاق جماعة معينة فإنه يذوب فى المعركة الحامية للبشرية التى وصلت إلى مستوى رفيع فى نقل الأخبار من الناحية الفنية فإن التعبير اليوم يتطلب وسائل ليست مجرد حرية الكلام للفرد هى التى تحققها ، وأن نقل الأفكار والتأثير بواسطتها ، هذه العوامل تحتاج إلى مقدرة مالية للإعداد لها على نطاق واسع ثم إعدادها فنياً بأدوات مختلفة للإذاعة ونشر الرأى مع توفير انتظام هذه الإذاعة ثم اجتذاب جمهرة الناس الذين يتأثرون بالفكرة ويقتنعون بها ، وفيما يختص بالصحافة مثلا نرى إن إنشاء صحيفة يومية تطبع عدداً لا يستهان به يتطلب فى فرنسا نحو ٢ مليار فرنك من العملة القديمة ، وبلغت نفقات صحيفة يومية تطبع ١٧٠

ألف نسخة فى فرنسا سنة ١٩٥٣ مايقرب من مليار فرنك . وفيما يختص بالسينما وهى من أدوات الدعاية القوية لم يعد فى استطاعة الفرد وحده - إلا ما ندر - أن يستخدمها لصالحه ، وان تمويل فيلم يتطلب عمليات متعددة تبدأ بتدخل رجل الأعمال « المنتج » علاوة على الذين يعدون الفيلم حتى يصبح صالحاً لنشره على الملأ ، وهناك من الأفلام ما يستخدم للدعاية من الناحية القومية ومن الناحية الدولية ولها أثرها الذى ماكان يفكر فيه رجل القرن التاسع عشر وماكان يفكر فى أثره البعيد المدى ، مثال ذلك الأفلام التى تذاع عن بشاعة الحروب وعما تحدثه من أضرار وآلام للبشرية ، وهناك الأفلام التى تذاع عن حياة السعة والدعة فى العالم الغربى ، وهناك الأفلام التى ينشرها أعداء العرب وينفقون الأموال الطائلة لنشرها فى العالم عن تقدم اسرائيل ، وأقرب مثل هو هذا الفيلم المشهور الذى عرض فى دور السينما فى مختلف أنحاء العالم باسم « النزوح إلى إسرائيل » Exode وهو يمثل الحياة فى إسرائيل على الوضع الذى يريد الصهيونيون المغتصبون أن يظهروه للعالم ليستدروا عطف الرأى العام ، وقد انفق على هذا الفيلم الملايين وقام بالدعاية له العديد من نجوم السينما فى العالم ، وهناك أفلام لا حصر لها لا يستطيع الفرد أو حتى لا تستطيع جهة من الجهات وحدها الانفاق عليها ولن تكتب لها الحياة إلا إذا قامت الدولة بالعملية كما يشاهد فى الاتحاد السوفيتى .

أما فيما يختص بالراديو والتليفزيون فإن العامل الفنى يسير جنباً إلى جنب مع العامل المالى حتى يمكن بقوة المال أن تتحقق إذاعة قوية ، وتنحصر فى مجموعة محدودة من مؤسسات الإذاعة ولا سيما فى البلدان التى تأخذ بنظام الإذاعة والتليفزيون الخاص لا العام .

وأن حرية الكلام بوجهها الحالى لها معنى غير المعنى القديم فى عصر الحريين وحرية عصرنا الحالى تخضع للوسائل الفنية القائمة اليوم ، وإن وسائل الإذاعة هى القوة المسيطرة فى توجيه الحريات وتعبر عنها البرامج ، وإن تحقيق البرامج ونجاح الإذاعة لا يتأتيان إلا عن طريق هيئة من الهيئات القوية أو بإشراف الدولة على الإذاعة ولم تعد المعركة لبلوغ الحريات معركة إقامة المتاريس كما كان الوضع فى القرن الماضى وإنما هى اليوم بين ندوات رزينة وما يصحب نشر الصورة أو الفكرة من زخارف تغرى الجماهير على الاستماع إليها وتتبعها ، وحق الإنسان اليوم هو فى أن يتلقى البيانات والإعلان ويكون الفكرة التى قد توجهها الجماعات القوية إليه ، وبذا يمكنه أن يكون رأياً بإجماعه مع سائر الآراء لإخوانه ومواطنيه وهكذا يتكون الرأى العام ، وأصبحت المسألة تجمع بين تسلية الفرد ثم بين فكرة معينة فى عقله ، وقد تكون التسلية سطحية وتحولها إليه الإذاعة أو تطلعه عليها السينما أو التليفزيون ، وهى فى سبيل أن يتنحى عن رأى معين ويعتنق رأياً آخراً ، وفى الوقت ذاته يتبع هذا العمل تسلية وأن يمضى وقتاً ممتعاً فى الاستماع أو

النظر ، وهو بين صور «تقليدية» أو صور«كاريكاتورية» أو «هزلية» ، وفى الوقت ذاته يستمع أو يرى بين الصور ما يؤثر فى نفسه وما يتناول أخطر مشكلات العالم وهو لا يشعر فى هذه الأثناء أنه تحت تأثير القوة الفنية التى تجذبه كالمغناطيس إلى الفكرة ، وهكذا يتكون الرأى العام اليوم وهو تحت تأثير ملطف يمكن أن نسميه بحق أقوى مهدىء لأعصاب الشعوب ، وفى نطاق هذا الإطار يمكن التأثير فى الرأى العام والغرس فى أرضه القحلاء وفى خطوطه العميقة ليبذر فيها ما يشاء صاحب الدعوة من الأفكار لتنمو فيما بعد

ويضاف إلى هذا ما يأتى به التعاون فى ميدان الثقافة للإعداد الجماعى للأفراد وتوجيههم زرافات فى المدرسة وفى المنزل وفى البيئة الاجتماعية ، ونرى فى هذه الجماعة مثلا أنه إذا أريد الاهتمام ببلاد معينة لكى يذاع على الأطفال والشباب فيما بعد ما يجلب العطف على هذه البلاد ولتكن هولندا مثلا فتبدأ الإذاعة والصور بنشر مجموعات من الجبن الهولندى مع ذكر مزاياه ثم فيما بعد يمكن كسب الجو لصالح هولندا بين الأطفال ولصالح شركات الجبن بين رجال الاستيراد .

وهكذا وقد بينا قوة الدعوة والنشر والإذاعة وأهمية استخدامها يتعين أن نرى من الذى يجب أن يقبض على اعنتها لاستخدامها مع ملاحظة أن التطور الفنى لأدوات الدعاية هذه تميل نحو التركيز وتتطلب الأموال الطائلة لحسن سيرها وصدق رسالتها ونجاحها .

ونرى أنه فيما يختص بالصحف أن الاتجاه فيها هو نحو بناء الصحف الكبرى مع اختفاء الصحف والمجلات الصغيرة وأنها أصبحت أقرب إلى العمليةالتجارية منها إلى مجرد أداة ثقافية ، وعلى ذلك يتعين أن تراقب الدولة خطواتها أولا بأول وأن تفرض تشريعاً من شأنه أن يمنع تصوير الحوادث تصويراً مشوهاً فى الأذهان وتسميم العقول بآراء خطيرة والاعتماد على بث الكراهية والحقد فى نفوس الناس والحض على الحرب واصطدام الطبقات بعضها ببعض وتحسين ارتكاب الجرائم واستغلال حياة الناس الخاصة وفضائح الأسر فى سبيل تسلية الجمهور ، وليست المهمة سهلة ، ولذلك يتعين أن تقبض الدولة مباشرة على أعنة الرقابة مع تأميم الصحف إذا دعت الحال فى بعض البلدان كما هى الحال عندنا ، ولما كانت العملية الصحفية اليوم عملية معقدة والصحيفة تعتمد على أخبار وتطورات العالم أكثر من اعتمادها على المقالة فهى تتطلب الانفاق الواسع النطاق ، لذا يتعين على الصحيفة أيضاً أن تسد نفقاتها مما يدره عليها نشر الإعلانات .

وفيما يختص بالسينما فإن الإنتاج يتطلب امكانيات ضخمة واتساع نطاق الدعاية فمن الاستوديو إلى إذاعة الفيلم فى صالة العرض على الشاشة الفضية تتعددالمراحل وتستطيع

الهيئات المسيطرة أن تقف فى وجه المنتج أو المخرج فى أية لحظة وهو يحاول أن يخرج على رغبة المجموعة ، وإذا أريد إذاعة أخبار عن طريق السينما لصالح هيئة من الهيئات فإن هذه الجريدة المصورة تتطلب نفقات طائلة وتصبح فضلا عن أهميتها الاجتماعية عملا تجارياً يستلزم نفقات كبيرة لاتستطيع أن تضطلع بها إلا هيئات لهامقدرة مالية واسعة كالأحزاب السياسية أو الحكومات ، كما أن الشركات التى تقوم بنشر الأخبار تتطلب رؤوس أموال كبيرة وتفرض الدولة عليها رقابتها ، وفى غير البلدان الشيوعية توجد طائفة من الشركات الخاصة فى هذا الصدد وقد تعقد الشركات مع بعضها اتفاقات ذات صفة دولية حتى يمكنها أن تتبادل الدعاية والأفلام الدولية ، وان التركيز فى السينما يتضح أكثر منه فى الصحافة وعلى هذا فإن المشروعات المنعزلة عن هذا التركيز لا تحظى إلا بمقومات ونشاط ضعيف .

وفيما يختص بالإذاعة والتلفزيون فإن وجه المنافسة فى إطارها ضعيف وضيق ، والاحتكار يطغى على هذا النوع من المشروعات ومحطات الإرسال محدودة مع ملاحظة خضوعها للاتفاقات الدولية ، وفى حالة وجود محطات غير حكومية يتطلب الأمر التفاهم فيما بينها لتنسيق أعمالها ، ونرى فى التلفزيون ومحطات الإرسال هذه أنها لا تعتمد بحال على إرادات مباشرة فإن المستمع أو الناظر إلى الشاشة بمجرد شرائه الالة يصبح له الحق فى الاستماع والنظر فى أى وقت يريد فحسب ، أما تمويل المشروع فيتخذ ثلاث وسائل إما أن يدفع المالك الضريبة أو بتمويل قائم على إرادة الذين يستخدمون المحطات كجمعية أو قد يكون التمويل عن طريق الإعلان وفى هذه الحالة فإن التنافس يأخذ وضعاً مريراً ويصبح معركة للتسلط والاحتكار ، وفى الولايات المتحدة الأمريكية ، وهذه من البلدان النادرة التى يقوم فيها استخدام الإذاعة وما إليها على المشروعات الخاصة فتكون هناك عمليات تركيز للاقتصار على عدد محدود من محطات الإرسال حتى يمكن التفاهم فيما يختص بإذاعة البرامج وتوزيع الإعلان .

وقوة الدعاية هى فى تنوعها واستمرارها فى أوسع نطاق لتصل إلى شتى الطبقات وتؤثر فى متنوع الثقافات وتهز المشاعر فى الأمة من رجل الشارع إلى الرجل المثقف ثقافة كبيرة ، والدعاية السياسية لها أهميتها وتستخدم شتى أدوات الدعاية وهى كالوقود للقاطرة لذلك يحسن بالمسئولين ألا يضنوا عليها بالمساعدات وأن يعلموا علم اليقين أنها لازمة كمقدمة لتأييد الفكرة وتدعيمها ، ووضع أسس للتشيد ، وهى قوة تقود الشعب فى الطريق الذى ترسمه كما تصد الهجمات على الحكومة ، وهى تعد الشعب لمستقبل أكثر ازدهاراً ، وقوة الدعاية فى بساطتها ، وضعف الدعاية فى عنفها ، وتفسير ذلك أن الدعاية يجب أن تكون حازمة فى غير شدة على الناس مع أحكام الهدف ، وضرورة ألا تنطلق فى مبالغة فاضحة فينصرف عنها الناس ويتشككون فى صدق نواياها ومن الحكمة

توزيعها على فترات متعددة منتظمة وكذلك توزيعها على أدوات مختلفة فلا تتجه فى شدة بالغة إلى ناحية معينة تذهب بالغرض منها ، وان حصرها فى دائرة معينة مع إنهاء الغرض منها لفترة وجيزة يضر بأصحاب الدعوة السياسية ويعرض الفكرة التى يدافعون عنها للأعراض عنها ، ويتعين أن تتصف الدعاية بالبساطة والمرونة واللين ، ويجب أن نعلم أن استخدام الشدة والعنف والمبالغة لابراز قوة الدعاية تؤدى هذه العوامل إلى انفضاض الناس من حولها واتخاذ هذا الموقف سلاح دعاية لتوجيه سهام مسمومة إلى لجان السياسة والحكم والحكام الذين يعتمدون على هذا النوع من الدعاية الضعيفة .

وعلى أصحاب الدعاية أن يهتموا دائماً باستخدام وسائل الدعاية فى غير بطش وقسوة ، كقفازين من حديد مكسوين بالحرير حتى لاتبدو شديدة فى مظهرها ، كما يحسن أن تصبح حازمة فى مخبرها ، والدعاية الناجحة أيضاً هى التى تحض على التآلف لبناء المستقبل ولا تورث العداوة والبغضاء ، كل هذا أدى إلى اهتمام الحكومة بأدوات الدعاية ووضعها موضع الاعتبار .. وتوجيهها إلى اجتذاب الجماهير .

كما اهتمت القوانين بضرورة مراجعة المؤلفات والكتب ، وتذهب التشريعات إلى تحتيم إيداع صورة من الكتاب وما فى حكمه الذى تحت الطبع فى الإدارة المختصة وقد يذهب الوضع إلى فرض الرقابة على الكتاب وما فى حكمه لصالح أمن الدولة والخلق العام والمبادىء الاجتماعية التى تحكم الشعب ، وتحقق الدولة غرضين ، مراقبة الفكرة والمحافظة على حق المؤلف فى الامتلاك الأدبى لكثرة انتاجه حتى لايدعيه الغير لنفسه والإيداع دليل الحق ، وتتعدى الرقابة إلى التشريعات الثقافية وإلى الصحافة حتى لا تتسرب آراء تؤثر فى المجتمع تأثيراً سيئاً ، وتشتد الرقابة على النشر أثناء الحرب حتى لا تتخذ أداة الدعاية لصالح العدو ، وحتى لا يتسرب إلى الشعب اليأس والتردد والهزيمة .

وتنشر الحكومة أفكارها ووجهة نظرها عن طريق الكتابة والإذاعة وما تصدره باسمها لشرح برامجها وخدماتها للشعب وخططها فى الانعاش ، كما تحكم الحكومة الرقابة على دور الإذاعة ، وهى فى كثير من البلدان حكومية ، وتنظيم البرامج بطريقة تعمل على تقريب الحكومة إلى الشعب وكسب مودته وعطفه ، وتذيع فى نطاق واسع ما تعمله فى سبيل توفير وسائل الراحة لهم والتطلع إلى مستقبل أفضل .

وإلى جانب هذا النوع من الدعاية نذكر أخيراً الدعاية السياسية بواسطة الإذاعة والمسرح والتلفزيون ، وتلجأ الحكومات إلى السينما للدعاية بحق عن جهودها ، كما تمول بعض الدور لعرض وجهة نظرها على الشاشة البيضاء وعرض القصص المصورة للترويج لمبادئها السياسية ، وتتخذ الدول أيضاً المسرح كأداة وتشرف عليه وتعرض قصصاً تمثل

لبث الروح السياسية والاجتماعية والثقافية عن طريق تسلية الجمهور وفى مقدمتها الاتحاد السوفيتى ، وهى من أهم البلدان التى تقبض على أعنة التأليف والسينما والمسرح ، وتنتج الحكومة هناك الأفلام تعرضها على الجمهور وهى تتمشى مع المثل العليا للاشتراكية وأسس البروليتاريا ، ويحسن أن نذكر بهذه المناسبة أيضاً ألا تتجه الرقابة إلى تضييق الخناق على نشر الثقافات وإظهار الحياة الإنسانية والاتجاهات البشرية وكفاح الجماعة وميادين التأليف والسينما والمسرح كأنها ضمن خلايا من النحل تتحرك بالغريزة دون العقل والمنطق ، وان فرض الرقابة إذا بولغ فيه جاء بعكس المقصود منه ، وذلك حتى لا تذوى روح التأليف ولا تخبو شمعة الثقافة الإنسانية التى قامت عليها الحضارة .

الفصل السابع عشر

الدعاية وجس الرأى العام

انه من الأهمية بمكان جس نبض الرأى العام وتقدير احتمالاته فى اتجاهه إلى ناحية أو أخرى ، وذلك لأحكام عمليات الدعاية وتوجيه أجهزتها وخاصة للأغراض السياسية وكثيراً ما نرى جس الرأى العام قبيل اجراء الانتخابات لمرشحى الرئاسة فى الولايات المتحدة الأمريكية ، كما تقوم هيئات متخصصة باستفتاء الرأى العام لفكرة معينة كفكرة الحياد أو فكرة الحرب وغير ذلك مما يهم الرأى العام ويشغل بال رب الأسرة والرجل العادى فضلا عن رجل السياسة المتخصص ، كما أن جس الرأى العام قد يتجه أيضاً نحو عملية عادية يقوم بها المرء فى حياته الاجتماعية كتعاطى الكحول أو التدخين والاقبال عليهما أو الاعراض عنهما ، وغير ذلك مما يتناول أيضاً الميدان الاقتصادى والتجارى والهدف فى كافة الأحوال هو معرفة وجهات النظر على أقرب تقدير للاستعداد للدعاية لناحية أو للوقوف فى وجه الدعاية المضادة وكذلك لتتخذ النتائج كأسانيد للدراسة والبحث .

وبدأت عمليات جس النبض فى الولايات المتحدة وامتدت إلى خارجها عن طريق ما يسمى بعمليات جالوب Gallup وتفسير الأمر أن شاباً من جامعة أيوا Iuwa من أعمال الولايات المتحدة الأمريكية وكان أبوه تاجر حبوب ومحاصيل واسع الرزق والثراء ثم ما لبث أن تبخر ماله وأفلس مما أثر فى نفس ولده جالوب وخاف أن تتعطل دراسته الجامعية ، وكان قد سبق له أن قام بتجربة فى محل والده تتلخص فى تناوله حفنات من حبوب الفاصوليا البيضاء والحمراء المختلطة فى كيس واحد على دفعات وكلما عد اللونين وجد أن العدد لا تتغير نسبته ، مما أوحى إليه باستخدام هذا الكشف الجديد فى كسب نفقات سكنه وتعليمه ، وأقنع زملاءه فى الجامعة بتوليه تحرير جريدة الطلبة ، وارتفع عدد التوزيع من ٣٠٠ إلى ١٠٠٠٠ ، وأصبحت الصحيفة تباع فى كافة أنحاء المقاطعة ، كما حصل على إعلانات عديدة بأجر مرتفع ، وبدأ جالوب ينفذ كشفه بتوجيه أسئلة معينة إلى قرائه عما يفضلونه من هوايات وخلافها ، ثم فكر فى أنه إذا اتسع فى تنفيذ فكرته وتعمق فى جس النبض فإنه سيصل إلى تحسس اتجاهات الرأى العام ، ولكن الأمر يقتضى تنظيم تطبيق قاعدة الاحتمال على الالاف والملايين بأسلوب منظم يوحى بالثقة بنتائجه ،

ورأى فى اعتباره أنه ما دام قد استخرج نفس النتائج على دفعات من كيس الحبوب فهذا العامل يحكم أيضاً الوضع فى استفتاء الناس ويمكن أن يتخذ هذا الكشف قاعدة يحتذى بها ، وكرر جالوب استخراج الحبوب من الكيس ليتأكد من سلامة العملية ووجد أنها قد تحيد عن نسبة ٣٠ للحبوب الحمراء و ٧٠ للحبوب البيضاء بنسبة ١٪ ، وهكذا بدأت فكرة جس نبض الرأى العام والكشف عن مكنونه ، وكان هذا الكشف موضوع رسالته فى حصوله على درجة الدكتوراه من الجامعة .

وسار قدماً فى معترك الحياة واضطلع بتدريس الصحافة فى جامعة الينوا Illinois وقام بمهمة جس نبض الرأى العام بين القراء لصحيفة المدينة ، وأدى هذا إلى تضاعف توزيع الجريدة وإلى اشتهار اسمه خارج مدينته واستدعته إحدى وكالات النشر بنيويورك لمعاونتها ، وتقدم فى تجاربه بجعل ثلاثة الآف مواطن يختارون بنسب معينة من بين الطبقات المتعددة ومن أعمار متباينة كما تختلف دياناتهم ومهنهم وهم من مختلف أنحاء البلاد ، ويطبق عليهم جس النبض بالاستفتاء وبسؤالهم عما يصبح موضع البحث ، وتطبق النتيجة على كافة المواطنين الأمريكيين الذين كان يبلغ عددهم فى ذلك الوقت أى سنة ١٩٣٥ نحو ١٤٠ مليون نسمة ، ويمكن بذلك معرفة اتجاه الرأى العام ، وتصبح هذه الوسيلة عظيمة الفائدة لسؤال الشعب عن رأيه لمعرفة اتجاهاته فى انتخاب المرشحين للرئاسة فى الجمهورية الكبرى للعالم الجديد .

وتقدم جالوب خطوات جديدة إلى الأمام فأنشأ بمعونة عدد من الصحف الكبرى معهداً للاحصاء لجس الرأى العام ، وبدأ أول نشاط له فى المعهد فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٣٥ على نطاق واسع وكان ذلك بخصوص سياسة روزفلت ومشروعه المسمى التنظيم أو البرنامج الجديد New Deal لمعاونة وانعاش الزراعة والصناعة وبيوت المال ، ولا يخفى ما كان من أهميته للمشروع إذ كانت الانتخابات على الأبواب فميعادها كان سيحل بعد سنة تقريباً ، وأذاع جالوب نتيجة الاستفتاء على أساس كشفه ، والغالبية ضد البرنامج الجديد ، مما أثار سخط أصحاب البرنامج وعلى رأسهم الرئيس رزفلت ، واتهم بأن الجمهوريين أوعزوا إليه بهذه النتيجة ليخذلوا الديمقراطيين ، ثم جاء بعد ذلك دور الاستفتاء بخصوص انتخابات الرئاسة وشرع جالوب بهمة فى جس النبض ؛ وحدد فى ١١ يونية سنة ١٩٣٦ المرشحـان وهما روزفلت Rosevelt عن الحزب الديمقراطى ، ولاندون Landon عن الحزب الجمهورى ، ونزل إلى الميدان منافس لمعهد جالوب فى جس الرأى العام وهو المختار أو المجلة الأدبية Literary Digest وأذاع جالوب بعد شهر من التاريخ المذكور أن نتيجة منافسه ستكون ٥٦ ٪ للندون

و ٤٤ ٪ لروزفلت مما أثار حفيظة منافسه ولم يك بعد قد أذاع النتائج التى كانت ستذاع بعد ستة أسابيع ، وهاجمت الصحافة جهود جالوب واتهمته بأنه لم يقم بعملية جس نبض الرأى العام بدقة ، كما هاجمه بعض القراء وقد أكدوا أنه لم يجر استفتاءهم بحال ، وتنبأت الصحافة فيما عدا المؤيدة لجالوب بهزيمة روزفلت ، غير أن نتائج انتخابات ٣ نوفمبر سنة ١٩٣٦ جاءت فى صالح جالوب وذلك بنجاح روزفلت فى الانتخابات للرئاسة ، مما زاد فى مقدرته الفنية فى عملية جس النبض ورفع من شأن بحوثه ، وخاصة أن تنبآت المختار الأدبى جاءت وفق ما زعمه جالوب ، وهكذا بدأت تتدعم خطته فى الاستفتاء وتقدير اتجاهات الرأى العام وإجراء عملية الاحصاء لاستخراج النتيجة النهائية ، كما نجح المعهد فيما بعد فى جس النبض والتنبؤ بنجاح الرئيس أيزنهاور فى الانتخابات للرئاسة ، واتبعت طريقته بواسطة رجال الصحافة والسياسة والصناعة والتجارة ، وسار فى نفس السبيل العديد من الحكومات وأنشئت معاهد مماثلة للوصول إلى نفس نتيجة جالوب .

وأصبح اليوم من الأهمية بمكان جس الرأى العام ، مع ما هو عالق به من عيوب ظاهرة وخفية تبعاً لتقلبه ، ولصعوبة تحديد ما إذا كان يمثل رأى الجماعة أو العامة أو يتناول المسائل العامة ، وذلك لأنه إحدى الظواهر الاجتماعية لعصرنا الحالى ، مما يتعين تفهمها وقد صار للسواد نشاط وقوة تؤثر تأثيراً عميقاً فى مختلف نواحى الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لعالم اليوم ، وإن من يريد قيادة الرأى العام أو التأثير فيه عليه أن يستفيد من حركاته وتقلباته بتتبعها ما أمكن .

ومن الأمثلة الحية على أهمية جس الرأى العام للاستفادة من هذا العمل فى الدعاية والتوجيه ما قام به راعى كنيسة سان سليبس Saint-Sulpice بباريس سنة ١٩٥٤ لمعرفة اتجاه رعاياه فى منطقة اختصاصه ليقوم بدعوته الدينية والإصلاحية على أساس ما يحصل عليه من نتائج ، وقد طلب إلى معهد فرنسى متخصص القيام بهذا الأمر ولم يشأ أن يباشره بنفسه حتى لا يحصل على نتائج مليئة بالمغالطات تبعاً لتهيب رعاياه ثوب المسوح وانحرافهم عن القول الحق ارضاء واحتراماً له ، وقام تحرى راعى الكنيسة المذكورة على أساس تحقيق بين الرأى العام أساسه : ما الذى يفكر فيه المؤمنون ويرونه فى صدد الكنيسة ؟ ونشرت النتائج فى النشرة الدينية واستخلص منها أن نصف من سئلوا من الرجال والنساء كانوا يرون عن اقتناع أن رجال الدين ليسوا على قدر المهام الملقاة على عاتقهم بل هم دونها وأنهم فى صف الأغنياء ، وأن الكنيسة لا تكف عن طلب المال ، وأن رجالها يتدخلون فيما لا يعنيهم كما أن النساء فى مجموعهن أميل إلى الكنيسة من الرجال ، ولا شك ما فى نتائج هذا الاستفتاء من مزايا لعلاج أوجه النقص ، وهكذا يتضح أن جس الرأى العام من الأهمية بمكان لا فى حدود دائرة الكنيسة المذكورة فحسب ، بل

بين الشعب عن بكرة أبيه لقيادته وتوجيهه شأنه شأن أداة الرادار التي لاغنى عنها لقيادة الطائرة اليوم قيادة صالحة .

ويتجه جس الرأى العام فى كافة نواحى الحياة اليوم ، فقد يكون لمعرفة أثر الأحداث والتطورات السياسية على الناس كتتويج الملكة اليزابيث الثانية وكقيام الجمهورية الفرنسية الخامسة عقب اضطرابات وخلافات واسعة بين الأحزاب ، وكاستمرار ديجول فى الحكم وكحرب فيتنام واستحكام الخلاف بين ماليزيا وأندونيسيا والصين الشعبية والاتحاد السوفيتى وكتفجير الصين للقنبلة الذرية وكموت ستالين وإقالة خروشيف من الحكم ، وقد يكون جس النبض فى ميادين الأعمال والصناعة والتجارة وهو كثير الحدوث فيها ، بل إن رجال الأعمال اليوم فى الولايات المتحدة الأمريكية وانكلترا وفرنسا وغيرها يلجأون إلى هذه الوسيلة باتباع طريقة جالوب أو غيرها قبل إقدامهم على مشروع هام جديد وكذلك فى سبيل تحسين أعمالهم ونشاطها واتساع تجارتهم .

غير أنه يجب فى حالة الإقدام على جس النبض مراعاة ما تتكبده العملية من نفقات ، ولا ينجح معهد الرأى العام إلا بالإغداق عن سعة فى سبيل انشائه وتزويده بالخبراء بالمتخصصين ، وتكاليف عملية جس النبض للفرد الواحد لاتقل عن ألف فرنك فرنسى من العملة القديمة وهو ما يعادل أقل بقليل من الجنيه الاسترلينى وإذا كانت عملية استفتاء تتطلب سؤال نحو ثلاثة آلاف شخص من أوساط وأعمار مختلفة فإن مجموع النفقات تبلغ نحو ثلاثة آلاف جنيه استرلينى للوصول إلى نتيجة احتمالية قريبة من الصواب .

ويقوم السائلون الذين يباشرون عمليات جس النبض فى سبيل تحقيق اختباراتهم باتباع الخطوات الآتية :

١ ـ تتخذ طريقة القرعة من واقع الكشوف الانتخابية أو من اختيار يقوم على المصادفة لمنزل أو مسكن ولفرد من كل حى فى المدينة حيث يتجه إليه الباحث ، وهذه الطريقة هى فى صميم قاعدة الاحتمالات بشرط أن تراعى وسيلة الاحتمالات دون خرق لها ، وقد يضيع الباحث وقتا طويلا لتعيين الفرد الذى سيسأله ومعرفة ساعات فراغه لمقابلته ، ونفقاتها مرتفعة ولكنها مراعاة فى الولايات المتحدة الأمريكية كأفضل الوسائل للحصول على نتائج دقيقة .

٢ ـ وهناك طريقة أخرى وهى أن يتبع القائم بالتحقيق بنفسه وضع خطة اختيار عينات الاستفتاء باختيار يقوم على استشارات ومداولات وتفكير ، ومؤسس على إحصاءات دقيقة وفئات وأوساط اجتماعية مختلفة تبعا للمهنة والمنطقة والسن والأنوثة والذكورة ، وكل فئة تكون مجموعة قائمة بذاتها من مجموعات البحث والدراسة

وإذا اتبعنا هذه الطريقة لتحديد نسبة الأغنياء ومن فى بحبوحة من العيش ثم متوسطى الحال والفقراء فيحسن أن يراعى فى هذه الحالة اختيار مجموعات مستقلة بقواعد محددة Normes ، على أساس هل الفرد يملك المنزل أو هو مجرد مستأجر له ؟ وهل يملك ضيعة أوعقاراً فى الريف ؟ وهل لديه الكهرباء والماء والغاز والتليفون والثلاجة الكهربية والراديو والمذياع والغسالة الميكانيكية والتليفزيون وهل يملك سيارة وتحت امرته بعض الخدم ؟ وما الذى يدفعه كايجار لمنزله ؟ وأدى اتباع هذه الطريقة فى فرنسا إلى استخراج النسبة الآتية : ٨ من الشعب يعتبرون أغنياء ، ٣١ فى بحبوحة من الرزق personnes aisées ، ٤٣ ٪ فى عداد متوسطى الحال ، ١٨٪ فى عداد الفقراء . وبعد إعداد الكشوف على الأساس المذكور يمكن تطبيق النتيجة على كل ناحية أومقاطعة على أساس الخريطة السكانية وبالنسب المبينة آنفاً مع مراعاة التفاوت فى ثراء المقاطعات إذا كان ثمة تفاوت ، ومع عدم اغفال العوامل الدينية ودرجات التعليم والثقافة فى الشعب ثم يأتى بعد ذلك تدبيج أسئلة الاستفتاء وهذا ليس بالأمر السهل .

والتدبيج يتطلب الدقة مع البساطة فى وضع أسئلة الاستفتاء حتى يمكن الإجابة عليها بسهولة وبسرعة وبنعم أوبلا ، ويجب ألا يحرج السائل برأيه مثلا فى تفضيل عمل آخر أو فرد آخر ، فيكتفى بشق من السؤال لمجموعة وبشق آخر لمجموعة أخرى ، ثم يجب فى مراعاة اختيار المحققين أن يكونوا على دراية كافية بعمليات جس النبض والاستفتاء وأن يكونوا قد درسوا العلوم الاجتماعية وتتبعوا محاضرات معهد الرأى العام ، ويتعين أن يراعوا فى أسئلتهم أن يخلقوا الجو الملائم لها مع البساطة والوضوح والدقة وأن تكون تصرفاتهم طبيعية لاتكلف فيها مع الوثوق من كفاياتهم وشخصياتهم وظروف الذين سيتلقون الأسئلة ، فلايطلب مثلا من رجل أصلع رأيه فى ترويج فرشاة الشعر وإطالته ، ويجب مراعاة إيجاد عوامل تجذب السائل إلى الذى يلقى عليه السؤال المطالب برأيه مع سؤال كل فرد على حدة ، حتى لايتأثر كل بالآخر وعدم تعليق السائل بحال على الإجابات ويجب أيضاً عدم إغفال عامل هام فى نجاح الاستفتاء وهو جذب الناس بصفة عامة إليه بتلقينهم وتدريبهم على أنه للصالح العام وللكشف عن أدوائهم وعلاجهم بالأدوية الملائمة ، وأنه لاجدوى من العلاج والدعوة للفكرة إذا تعذرت معرفة اتجاه الرأى العام ، ويتعدى النشاط جس الرأى العام قوميا بالقيام بتنسيق العمل بين معاهد الرأى العام فى البلدان المختلفة وهى تبلغ العشرات وذلك باجتماع مكاتبها سنويا لدراسة تنظيم خططها والأعداد لاستفتاء على مستوى دولى واسع النطاق .

وتتلخص العملية فيما رسمه جالوب بطريقة جسه النبض وهى :

من هو الذى يبلغ ويعطى علما بشىء معين ؟ Qui est informé وفيما يبلغ ؟

Comment on est informé? وكيف يمكن التبليغ؟ Sur quoi on est infornné

ويلاحظ اليوم أن أهمية الاستفتاء لاتقل فى بلدان الكتلة الشيوعية عنها فى البلدان الديمقراطية وان الاهتمام بالاستفتاء هناك وضح مع استقرار الأوضاع والتطبيق المذهبى وفق البيئة وطبيعة الشعب ، ومع سيادة الروح الإنسانية بحاجاتها وميولها وقوة الفكر وتكوين الرأى وتفاوت الكفايات على المثل التقليدية التى جاءت فى كتابات رجال المذاهب الاشتراكية العلمية دون إمكان تطبيقها ، وبدأ تكوين رأى عام بين الشباب والشيوخ على السواء ، وينشط معهد جالوبسكى Gallupsky Institute فى موسكو فى جس نبض الرأى العام وفى سؤال الناس عما يفضلونه هل الصناعات الثقيلة أم مواد الاستهلاك والمسرحيات والفودفيل أم الكولخوز والديمقراطية الشعبية أم الديمقراطية فحسب ؟ وتأتى النتائج ببيانات هامة ، غير أنه يصعب تطبيق الاستفتاء بين أقوام لم يبلغوا مستوى معيناً من الثقافة ، وهم لايدركون أهمية عملية جس الرأى العام كما بين شعوب لاتزال تعيش على الفطرة أوفى حالة من الاضطراب والفوضى أوفى جو سياسى لاتتمتع فيه الصحافة بأية حرية من الحريات كما فى أسبانيا أوفى بعض جمهوريات أمريكا اللاتينية .

وتتضح أهمية عمليات جس النبض باستطرادنا فى الشرح فيما يأتى :

١ — إعداد البيانات لدراسة مشكلات الفرد والجماعة من النواحى الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وغيرها ، ولتوجيه الدعاية توجيها صالحا لنجاح التجارة وخطط الحكومة ومشروعاتها .

٢ — مد رجال الأعمال والصناعة والبنوك بالبيانات الدقيقة عن اتجاهات الشعب فى الإقبال على سلع أومصنوعات معينة والأعراض عن أخرى وعن موقفه تجاه توظيف رءوس الأموال وأعمال الإدخار والاكتتاب فى الأوراق المالية من أسهم وسندات .

٣ — إظهار ميول الرأى العام لمبدأ من المبادئ أولفكرة تتناول سياسة الدولة أوأعمال أو تحولات السياسة الدولية ، ولو كان بيرون Peron الرئيس السابق للأرجنتين على إدراك صائب باتجاه الرأى العام لما فقد الرئاسة والحكم فى الأرجنتين سنة ١٩٥٥ ، ولو كان كل من هتلر وموسولينى على علم بنوايا بريطانيا سنة ١٩٣٩ فى الإصرار على الحرب ثم فى العزم على مواصلتها مع تأليب العالم الحر عليهما سنة ١٩٤٠ بعد تسليم فرنسا لما ركبا رأسيهما وتماديا فى غيهما مما أدى إلى خسرانهما الحرب العالمية الثانية .

٤ — وضع الإحصاءات الدقيقة لإمكان دراسة مسائل عديدة تهم الدولة والجمهور وتوجيهها لصالح الشعب وأثرها فى الجمهور مثال ذلك عمليات تأميم الصناعات والبنوك وغيرها والمرافق العامة والعناية بها كوسائل النقل والكهرباء والمياه .

٥ ــ مساعدتها فى إعطاء بيانات قريبة إلى الصحة لعمليات تفصيلية ولكنها قد تهم بعض المؤسسات أوأصحابها بالذات ، وتقوم بها معاهد الرأى العام والإحصاء ذات الفروع المتشعبة فى العديد من البلدان كبلجيكا وسويسرة وفرنسا ، كارسال محققين وباحثين لمعرفة ما إذا كان من المستطاع بيع سلعة فرنسية معينة فى العربية السعودية أو كاستفتاء الرأى العام فى قبوله ظهور نجم من نجوم السينما أوالمسرح وإقباله عليه سبق أن اختفى ويريد الرجوع إلى الشاشة البيضاء أو خشبة المسرح وهل سيكتب له النجاح ؟ وهذا النوع من الاستفتاء يمد أيضاً المؤسسات الخاصة للعطور وزينة النساء ببيانات مفيدة لمشروعاتها كنسبة الباريسيات وغيرهن اللاتى يستعملن أنواعا معينة من الدهون أوالعطور أوالألوان أو البودرة وأعمارهن ، وهذا النوع من الاستفتاء يفيد فى تحقيق الأرباح وتفادى الخسائر .

وأخيراً يحسن أن نشير إلى أن نجاح عملية الاستفتاء لجس نبض الرأى العام يتوقف على مدى دقتها وكفاية القائمين بها وصلاحية الإحصاءات مع فسحة من الوقت تتناول القيام بالاستفتاء ، وهى تبلغ ستة أسابيع فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ثم فسحة أخرى للفرز وإعداد النتائج وهى نحو ثلاثة أسابيع أخرى هناك ، مع ملاحظة احتمال الخطأ ويبلغ أقصاه نحو ٣ ./. ، وعدم إغفال عوامل أخرى كتغيير الميول لأسباب ليست فى الحسبان تتناول الحياة الزراعية أو الصناعية وما يحيط بهما من مشكلات تؤثر فى أصحاب الرأى العام مما يتعين معه اتخاذ الحيطة تجاه هذه العوامل ، وكذلك عدم اغفال عامل الاستفزاز الذى قد يضيع التصويت لصالح فريق وينقله إلى آخر ، كما يروى عن اختيار الجمعية الوطنية فى فرنسا سنة ١٨٧٥ النظام الجمهورى ، فقد كان الاختيار بترجيح الكفة لصالح الجمهورية ضد الملكية بصوت واحد فقط ، وتفصيل الأمر أن الدوق دى بوجلى Duc de Broglie وكان رئيساً للحكومة المؤقتة فى عرض مشروع فالون Wallon على الجمعية الوطنية باقامة النظام الجمهورى خاطب أحد نواب الأمة بلهجة شديدة اعتقاداً منه أنه أحد موظفى الجمعية وكتبتها Huissier ولم يك يعلم أنه من نوابها وهو النائب سنيارت Sénart عن مقاطعة الواز L'Oise وكان هذا النائب من رجال اليمين ويعطى صوته لرجال اليمين وكان الجميع يعتقدون ويؤكدون بعودة النظام الملكى ، وطلب إليه رئيس الحكومة بوضع مظلته فى المكان المخصص فى مدخل الجمعية Vestiaire وإلا يتركها على الأرض الخشبية اللامعة للقاعة تتساقط منها المياه ، وهذا أثار حفيظة النائب وأقسم أن يعطى صوته لرجال اليسار ، وهكذا قامت الجمهورية بصوت النائب

المذكور المرجع الحاسم وربما لو لم يك اليوم ممطر وكانت الشمس طالعة لما كانت تقوم الجمهورية الثالثة بصوت واحد .

ونختتم بحثنا هذا بعبارة مشهورة للمفكر والفيلسوف الفرنسى المشهور « فولتير » Voltaire وهى عميقة فى معناها بعيدة المدى فى أثرها وهى « إن الرأى يحكم العالم ، ولكن العقلاء والحكماء فى النهاية هم الذين يقودون هذا الرأى » .

"L' opinion gouverne le monde, mais ce sont les sages qui, à la longue, dirigent l' opinion".

خاتمة

نحو دعاية صائبة

إذا كان فولتير فى كتابه الذى يصف فيه عصر لويس الرابع عشر قد ذم الحرب بقوله « ان الحرب هوة سحيقة تبتلع فى أعماقها كافة قنوات الرخاء والرفاهية » فيمكننا أن نقول بهذه المناسبة أن الدعاية الصائبة القوية الأثر فى الرأى العام تعمل بهمة لا فى تفادى الحرب والحيلولة دونها فحسب بل فى تعاون البشرية ونشر التحاب بين مختلف الشعوب فى عصر السلاح الذرى الرهيب الذى يهدد الإنسانية وما بنته من حضارة على مر القرون بالفناء ، والدعاية هى اللغة القوية التى توجه إلى الجماعات بالقول وسائر وسائل نقل الفكرة بالإذاعة والصحافة والسينما وخلافها لجذبها إليها وتكوين رأى عام منها ، وعالم اليوم أحوج إلى سحرها من أى وقت مضى للحيلولة دون التدمير الشامل كما سبق أن أشرنا وإلى التكاتف فى سبيل علاج الأزمات والمشكلات والسير قدما فى البناء ، كما تتوفر وسائل نقل الفكرة مع السرعة اليوم تبعاً لاستمرار ابتداع وسائل جديدة للدعاية تسير جنباً إلى جنب مع المخترعات الحديثة .

وإذا كانت الدعاية قد استخدمت منذ مدة فى ميادين التجارة والتباهى بأبهة الملك وعظمة الدولة ، فقد أصبحت اليوم أهميتها قصوى فى ميدان السياسة كما شرحنا فى الفصول السابقة تبعاً لاضطراب عالم اليوم وصعوبة أن تعيش الشعوب فى جو من سلبية الحكومات إزاء مشكلاتها ، ويتعين أن تتدخل الدولة فى علاج أدواء العالم الحديث الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وأن ترسم الخطط المحددة بالزمن لتنمية موارد البلاد ورفع مستوى معيشة الأفراد والنهوض بالشعوب الحديثة الاستقلال التى فى طريق النمو .

وللدعاية جوها وبيئتها وعصرها ، وهى كما سبق أن شرحنا تختلف فى السياسة الحرة القائمة على قصر الدولة همها على الجيش والبوليس والقضاء وترك الناس وشأنهم يتنافسون فى معترك الحياة دون توجيه منها ، عنها فى السياسة القائمة على تدخل الدولة ، ولم تعد الحريات مطلقة دون رقابتها والحد من أضرارها وقاية للفرد حتى لا تطغى عليه المنافسة غير المشروعة والأزمات كما كان الوضع حتى قيام الحرب العالمية الأولى ، بل أصبحت الحريات اليوم منظمة ، ولم تعد مقصورة على المساواة السياسية والقانونية بل انبلج الصبح

بعد كفاح طويل للسواد المكافح بثورات منتصف القرن التاسع عشر التى جاءت فى أعقاب الانقلاب الصناعى عن العدالة الاجتماعية وبدء حصول الطبقات العاملة على حقوقها واتساع نطاق الرأى العام مع إدراك أهمية وحقيقة وزنه فى ميادين الرأى والكفاح ووضع حد لتعسف الاحتكارات ورؤوس الأموال الصناعية الضخمة، ولقد وقفت الثورة الفرنسية فى منتصف الطريق وقد تأثرت بالقانون الطبيعى وحقوق الإنسان وحرياته بمولده لفلاسفة القرن الثامن عشر وأطلقت العنان نظرياً للحريات مع التعلق بأهداب الفردية وتقديسها دون العناية بحقوق الفرد فى عدالة اجتماعية ومساواة اقتصادية على قدر جهده وإنتاجه مع الوقوف فى وجه طغيان الرأسمالية المستغلة المتعسفة بالحقوق .

وكذلك تختلف طرق الدعاية فى العالم الغربى الديمقراطى الرأسمالى القائم على النظم البرلمانية البورجوازية والأحزاب السياسية عنها فى العالم الفاشى والنازى أو العالم الذى يقيم فكره السياسى على أساس العقيدة ولايؤمن بالأحزاب السياسية ، وكذلك نرى الدعاية فى الرأى العام فى البلدان الناشئة التى فى طريق النمو غيرها فى البلدان التى بلغت شأواً بعيداً فى المدنية المادية ووسائل الرفاهية ، وما يصلح كأداة للتأثير على الرأى العام فى بيئة وبين أقوام بلغوا قمة الحضارة الحديثة وملكوا أسرار الصناعة وتعمقوا فى مختلف البحوث العلمية غيره فى بيئة وبين مجموعات من القبائل البدائية فى جزائر الباسفيك أو بين أهل أحراش الأمازون أو القرى النائية فى المناطق الاستوائية .

وتتطلب الدعاية لتسخير أدواتها من خطابة ونشر وتأليف وإذاعة وعرض مسرحى وسينمائى أن يكون لها هدف أعلامى لبضاعة أو صناعة أو سلعة من السلع المراد ترويجها ؛ وإذا كانت سياسية ، أو لأغراض اجتماعية أن تكون فى سبيل ترويج مثل معينة لصالح القائم بها ، وتربتها الرأى العام الذى يرتوى من قطرات كقطرات الغيث تتجمع فى نهر خضم عجاج لتسقيه بأفكارها .

وتنصب الدعاية على الرأى العام لمختلف طبقات الشعب ، ويتعين أن يعمل القائمون بها على دراسة طبائع الأفراد واتجاهاتهم ليصيبوا الهدف ، وتباشر الدعاية الدولة لصالح الشعب برمته وتنفيذاً لخططها فى تنظيم الحريات وتوجيه الحياة الاقتصادية وانتشال المواطنين من مشكلات ومخلفات الحربين العالميتين ، كما تقوم بها لصالحها وكسب أكبر عدد من المواطنين هيئات وجماعات لها وزنها فى ميدان الرأى العام وأهمها الأحزاب السياسية ونقابات العمال والجمعيات التعاونية والشركات وجمعيات التأثير والضغط على الرأى العام والحكومات والجمعيات الدولية وغير الحكومية المتشاورة وغير المتشاورة مع الأمم المتحدة ، وقد يتعدى جهدها صالح الأعضاء والسعى فى الحصول على كسب محلى إلى العمل على ترجيح كفة السلام واستتباب الأمن الدولى وتقوية روابط التعاون

بين الشعوب ، ولقد كان لكفاح الطبقات العاملة وزيادة وعى الرأى العام ونشاط الجمعيات الدولية غير الحكومية أثر ملموس فى جعل الحروب أكثر انسانية ووضع قواعد دولية للأسرى والجرحى ولنجاح مؤتمرات واتفاقات لاهاى لسنتى ١٨٩٩ و١٩٠٧ ثم لوضع وقيام ميثاق عصبة الأمم سنة ١٩١٩ وأخيراً لميثاق ومنظمة الأمم المتحدة ابتداء من مؤتمر سان فرانسسكو سنة ١٩٤٤ ولإعلان حقوق الإنسان دوليا وخاصة الإعلان العالمى لحقوق الإنسان الذى وافقت عليه الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ديسمبر سنة ١٩٤٨

والدعاية بأدواتها قوة لا يستهان بها فى نشر الاشتراكية بين أبناء الشعب وفى تثبيت دعائمها ، ومثل الرأى العام ببدء نفوذ أفكارها فيه كمثل التيار الكهربى متى اقتنع بها وانحاز إليها لن تلبث أفكارها البناءة القائمة على إنصاف الأيدى العاملة وإقامة مجتمع بعيد عن الاستغلال والاستعمار وجبروت الرأسمالية الطاغية والأقطاع وأطماع السياسة الغاشمة أن تنتشر أفقيا بينه بواسطة أعضائه لتضم إلى اعطافها كافة أبناء الشعب ، وهذا مانلمسه فى بسط جناحى الاشتراكية العربية بعطفها وحنانها ونعمائها على الشعوب العربية ، وقد بدأت المناداة بها وتطبيقها منذ قيام ثورتنا الناجحة لسنة ١٩٥٢ ، ثم تأكدت بقوانين الإصلاح الزراعى والتصنيع والتأميم والقضاء على الاستعمار والاحتكار والإقطاع ورؤوس الأموال التى تستنزف قوى الشعب لمصلحة أربابها الذين يعدون على الأصابع ، ورسمت وسائل العمل فى الميثاق الوطنى لسنة ١٩٦٢ فى سبيل تحقيق هذه الاشتراكية العربية النابعة من تربتنا وبيئتنا ولتحقيق آمالنا العريضة فى تحرير الأمة العربية وتحقيق وحدتها فى ظل العدالة الاجتماعية فى الداخل والتعلق بأهداب السلام فى الخارج مع عدم الانحياز إلى أية كتلة من الكتل المتصارعة فى الحرب الباردة وإقامة بنيان مرصوص من الشعوب العربية والشقيقة والصديقة الإفريقية والآسيوية على أساس الحياد الإيجابى والاتحاد بينها .

وتتمثل الدعاية فى بعض عبارات أوعلامات قد تكون بسيطة سهلة غير أنها قد تكون بعيدة الغور عميقة الأثر فى نتائجها ، والأمثلة على ذلك عديدة « كالحرية والأخاء والمساواة » للثورة الفرنسية ، و« كمن لايعمل لايأكل » للثورة الروسية وكفكرة برنامج الإنعاش الاقتصادى الأمريكى للرئيس روزفلت New Deal وكعلامة الصليب المعقوف للنازية والنسر الأزرق للإنعاش الاقتصادى فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وكالنسر مع الأحمر والابيض والأسود لثورتنا ونهضتنا ابتداء من ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢ ، ولكن دراسة الدعاية لنجاحها تتطلب تفهم اتجاهات الرأى العام حتى يمكن رسم دعاية صائبة وذلك باتباع الوسائل الإحصائية الدقيقة على أساس استفتاء الجماهير بجس نبض هذا الرأى العام بأخذ عينات منه وتوجيه اسئلة إلى الفرد فى فئات معينة فى توسيع نطاق التطبيق

بعمليات حسابية لاتخطىء إلا بنسبة ضئيلة لايعتد بها ، وقد أمكن على أساس هذه الخطة المسماة بخطة جالوب والتى تتبعها أوتتبع مايشبهها معاهد الرأى العام المتعددة اليوم يمكن التنبؤ بنتيجة الانتخابات مثلا وذلك لإعداد الرأى العام وخدمته فى حدود الإمكان ، ولقد تنبأ معهد جالوب بنجاح الرئيس روزفلت فى انتخابات الولايات المتحدة الأمريكية كما تنبأ أيضاً بنجاح الرئيس ايزنهاور .

ويحسن أن تقوم الدعاية على أساس بعيد عن المبالغات والأكاذيب والشائعات الخطيرة الضارة بالامن وصالح الأفراد والجماعات والسلام العالمى ، وإلا تتخذ وسائل ضغط يمجها الجمهور وتؤدى إلى العكس منها بانصراف الرأى العام عنها بدلا من اجتذابه اليها ، كما يحسن أن تسير فى قنوات عدة لتضم إليها أكبر عدد وكل يستهويه نوع منها ، وان تتخذ خطوات متئدة قوية والا يشعر من يتلقاها بأنها لا تهدف إلا إلى كسبه دون أن يكون لها هدف صالح ويحسن كذلك الا تتبع سياسة المغالطة والتضليل والتطويل الممل والاختصار المخل ، وأن يدرك أربابها أن ماينفق فى سبيلها من أموال إذا وجهت توجيهاً صائبا لن تلبث الهيئة القائمة بالدعاية أن تجنى ثمارها متى كسبت الرأى العام كقوة إلى صفها ، ويزعم الفيلسوف نيتشة Nietzsche « ان المرء له ميل لايستطيع مقاومته فى انسياقه إلى مغالطة وخداع نفسه وتدب فيه السعادة حينما يغنى له المنشد قصصاً خيالية عن البطولة ، وكأنها حقيقة واقعة أوحينما يقوم الممثل على خشبة المسرح بتمثيل الملك فى صورة أكثر مبالغة من الواقع » غير أن المغالطات والخداع لها حدود ويتعين على فن الدعاية معرفة روح الرأى العام وتفهمها حتى تصيب الدعاية هدفها .

الفهرست

الدار القومية للطباعة والنشر

الدار القومية للطباعة والنشر

الثمن ٣٠ مـ